المرأة والجنس



د. نوال السعداوي

المرأة والجنس

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوى

التى تنشرها دار ومطابع المستقبل :

المرأة والجنس .
الأنثى هى الأصل .
الرجل والجنس .
المرأة والصراع النفسى .
الوجه العارى للمرأة العربية .

د . نوال السعداوى

المــــرأة والجنـــــس

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

الطبعة الرابعة ١٩٩٠

كلمة قصيرة

إن التجاوب الشديد الذى حدث بين القراء والقارئات وبين الطبعة الأولى من كتاب المرأة والجنس ، كما أن نفاد الطبعة الأولى في وقت قصير ، ومطالبة كثير من الناس بطبعة ثانية ، كل ذلك دفعني إلى أن أقوم بعمل الطبعة الثانية ، وأن أضيف بعض النقاط التي كانت تنقص الطبعة الأولى .

وقد لاقت الطبعة الأولى تأييداً كبيراً من مختلف الكتاب والكاتبات في الصحف والمجلات ، وأثارت العديد من المناقشات في البيوت والمكاتب والندوات . وجاءتني رسائل كثيرة من قراء وقارئات يطالبون بالمزيد من هذه المعلومات الضرورية في الحياة . وقد سعدت كل السعادة بهذا التأييد وأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن أغلبية أفراد مجتمعنا يتحمسون للمعرفة .

وقد كان هناك بطبيعة الحال بعض أفراد (أحمد الله أنهم قلة قليلة جداً) أفزعتهم المعرفة كما يفزع الضوء القوي عينين تعودتا الظلام ، وجاءتني بعض رسائل قليلة تعارض نشر مثل هذه المعرفة ، تماماً كما ترتفع اليد فوق العينين لتحميها من الضوء . ولا شك أن ضرر إخفاء الحقائق أشد وأفدح من ضرر الكشف عنها . قد يكون الكشف مفزعاً في بعض الحالات إلى حد الرعدة ، ولكن هذه الرعدة مفيدة لأنها تهز العقل بقوة لدرجة الافاقة الكاملة والرؤية الواضحة .

شبكة الدكتور رأفت عثمان والمحامون العرب
RafatOsman.Com
محمد متولي & كمبيوترة

وإني أشكر من كل قلبي كل يد كتبت لي رسالة سواء بالتأييد أو النقد . وكم كنت أود أن أرد على جميع الرسائل برسائل خاصة ولكن ذلك لم يكن ممكناً . كما أنني أشكر كل من أيد هذا العمل بأي كلمة صادقة في أي مجلة أو صحيفة .

د . نوال السعداوي

تقـديم

لازلت أذكر هذه الفتاة رغم مرور عشر سنوات أو أكثر على اليوم الذي رأيتها فيه . كنت طبيبة ناشئة ولي عيادة في ميدان الجيزة وما أكثر ما يرى الطبيب في عيادته بشرط أن يجتاز بتفكيره وإحساسه حدود مهنة الطب التقليدية ، وأن يتخلص بفطرته القوية من آثار الأسلوب الضحل الذي درسنا به الطب ، والذي يفقد المريض إنسانيته ووحدته ، ويجزئه إلى أعضاء غير مترابطة ، معزولة عن النفس، منفصلة عن المجتمع .

كنت في ذلك اليوم أفكر في غلق العيادة ، فقد آمنت بعد خمسة عشر عاماً أنفقتها في دراسة الطب وممارسته داخل الوطن وخارجه أن أكثرية المرضى ليسوا مرضى وإنما تدفعهم ظروفهم الاجتماعية السيئة إلى الاحساس الدائم بالمرض ، وأن معظم الحالات المرضية فعلاً تشفى وحدها بقوة الطبيعة وإرادة الإنسان في الحياة .

في ذلك اليوم كنت أجلس أصمم بيني وبين نفسي على غلق عيادتي الطبية حين دخلت هذه الفتاة . شدتني إلى عينيها نظرة غريبة مذعورة تبحث بلهفة في عيني عن النجدة ، وبمرور السنين نسيت ملامح الفتاة تماماً لكن هذه النظرة في عينيها انحفرت في ذهني وأصبحت جزءاً مني .

لم تكن وحدها . كان معها رجل قال بصوت غليظ منفعل :

ــ أرجو يا دكتورة أن تفحصيها .

ووجهت سؤالي إلى الفتاة قائلة : بما تشكين ؟ ولكنها أطرقت ولم ترد . وقال الرجل بصوت أكثر غلظة وانفعال أشد : تزوجنا بالأمس واكتشفت أنها ليست عذراء .

وسألته : وكيف اكتشفت ذلك ؟

وقال بغضب : هذا شيء معروف لم أر دماً أحمر !

وحاولت الفتاة أن تفتح فمها لتقول شيئاً . لكنه قاطعها قائلاً : انها تدعي أنها بريئة ولهذا جئت بها إليك لتفحصيها .

واتضح لي بعد الفحص أن الزوجة تملك غشاء البكارة وانه سليم تماماً ، ولكنه من ذلك الذي يسمى فى الطب بالنوع « المطاط » يتسع ويضيق بمرونة دون أن يتمزق ودون أن تسيل منه قطرة دم واحدة .

وشرحت الأمر للزوج بدقة ، وكان رجلاً متعلماً سافر إلى الخارج في بعثة . وخيل إلى أنه فهم واقتنع ، وتنهدت العروس كأنها تتنفس لأول مرة بعد طول اختناق .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة . بعد أيام قليلة جاءتني الفتاة وحدها . لم يكن وجهها هو وجه فتاة الثامنة عشر التي رأيتها منذ أيام وإنما وجه امرأة عجوز شاخت قبل الأوان ورسم الحزن الألم على وجهها تعبيراً غريباً أشبه بوجوه الموتى التي رأيتها كثيراً في ظل مهنة الطب .

وقالت بصوت مشروخ : طلقني وكادت تكون فضيحة لولا أن أبي تكتم الأمر .

وسألتها : وهل يفهم أباك ؟

وهزت رأسها بالنفي وكست عينيها الذابلتين سحابة أوخت بدموع سالت وجفت وسالت وجفت حتي نضجت تماماً .

وقالت : لا أحد يعرف براءتي إلا أنت يا دكتورة . وأنا الآن أعيش في خوف من انتقام أبي وأخي .

ذهبت معها إلى أبيها وشرحت له الأمر . قلت له أن ابنته عذراء ، وان غشاء البكارة من النوع المطاط الذي لايتمزق إلا عند ولادة أول طفل . ودهش الأب حين سمع هذه الحقيقة العلمية وضرب كفاً بكف وقال في غضب:هذا يعنى أن ابنتي قد ظلمت

قلت : نعم .

قال : ومن المسؤول عن هذا الظلم ؟

قلت : أنتم ... زوجها وأهلها !

قال بغضب : بل أنتم المسؤولون يا أطباء ! لأنكم تعرفون هذه الحقائق وتخفونها عن الناس ، ولولا هذه الحادثة التي حدثت لإبنتى بالصدفة لما عرفت شيئاً . لماذا لاتشرحون هذه الأمور لكل الناس . انه واجبكم الأول حتى لا تظلم مثل هؤلاء الفتيات البريئات !

وصممت يومها على أن أعود إلى مكتبي وأكتب شيئاً في هذا الموضوع لكني رأيت أن الأمر يحتاج إلى علاج متعدد النواحي ،

فليس هو موضوع طبي فحسب ، وإنما هو موضوع اجتماعي واقتصادي وأخلاقي ، ولا يمثل فيه الطب إلا جانباً واحداً .

ومر عام وراء عام وقصص أخرى بمشاكل أخرى تمر أمام عيني ، ومآسي عديدة لفتيات ونساء وأطفال راحوا ضحية الجهل الشائع والتقاليد السائدة ، بعضهم مات موتاً حقيقياً أثناء عملية إجهاض أو عملية ختان أو ولادة تحت ظروف سيئة ، أو حوادث قتل أو اعتداء لعدم ثبوت دم العذرية ، وبعضهم مات موتاً نفسياً واجتماعياً بعد ماساة بسبب أو بآخر . وما أكثر الاسباب التي تتعرض لها المرأة في مجتمعنا لتقتل نفسياً وتعيش عمرها في حال تجعل حياتها كالموت بل أن الموت قد يكون أرحم في كثير من الأحيان .

وقد ساعدتني أسفاري المتعددة لمعظم بلاد العالم أن أحيط بوضع المرأة في مختلف المجتمعات المتقدمة والمتخلفة ، الرأسمالية والاشتراكية .

واستطعت أيضاً من خلال قراءاتي في العلوم الأخرى غير الطب والتاريخ والأدب أن أتفهم كيف ولماذا فرضت القيود على المرأة .

هذا وان تجربتي الخاصة كامرأة تزودني بحقيقة أحاسيس المرأة العميقة . وما أحوج العالم إلى معلومات صحيحة عن المرأة ، تغير المفاهيم الخاطئة التي أشيعت عنها ، وتصحح المعلومات التي راجت عنها في العالم ، والتي كانت تكتب في معظم الأحيان بأقلام الرجال .

ولهذا لم تكن هذه المعلومات تعبيراً عن حقيقة المرأة ، ولكنها كانت وجهة نظر الرجل في المرأة ، وما أكبر الفارق بين الحقيقة وبين وجهة النظر ...

نوال السعداوي

ديسمبر ١٩٧١

عن جسم المرأة

لاشك أن قصة العروس التي قدمت بها هذا الكتاب تفرض علي أن أبدأ ببعض المعلومات والحقائق الطبية والتشريحية لأعضاء المرأة التناسلية التي كان نصيبها من الجهل والتجبيل والاضطهاد أكبر من نصيب أى أعضاء أخرى لأى كائن حي ظهر على وجه الأرض .

وإن البدء بالتعريف بأعضاء جسم المرأة لايعني على الإطلاق أن الجهل بالتكوين الجسمي للمرأة أكثر شيوعاً أو خطورة من الجهل بتكوينها النفسي أو العقلي . لأن العكس هو الصحيح . فالجهل بنفس المرأة وعقلها أشد انتشاراً من الجهل بجسم المرأة .

لقد فرضت الظروف الاجتماعية منذ تاريخ بعيد أن تكون المرأة جسداً فحسب ، وساعد ذلك على اندثار نفسها وعقلها في طي النسيان ، وجهل الناس بمرور الزمن ان المرأة يمكن أن يكون لها نفس وعقل كنفس الرجل وعقله .

وقد قال كينيث ووكر : « إن جهل الرجل بالمرأة لايعني جهله بجسم المرأة ورغباتها والوظائف الفسيولوجية للجنس فحسب ، ولكنه يعني أيضاً الجهل بما هو أهم وأخطر . ذلك هو الفهم الانساني للمرأة كانسان مثله تماماً » .

لاشك أن تلك المحظورات والقيود التي فرضها المجتمع على المرأة

وبالذات على أعضائها التناسلية (لأسباب سأورد ذكرها فيما بعد) قد ساعد على تشويه معنى العلاقة الجنسية ، وارتبطت في الأذهان بالاثم والخطيئة والنجاسة ، وغير ذلك من التعبيرات المعيبة ، التي جعلت الناس يخشون الحديث عن الجنس والأعضاء الجنسية ، وبالتالي أصبحوا يجهلون عنه وعنها الكثير .

والجهل هنا لايعني غياب المعلومات ، لكن ترويج المعلومات الخاطئة أشد أنواع الجهل . وقد يكون من الأفضل للانسان أن يواجه الحياة بلا معلومات على الاطلاق على أن يواجهها بمعلومات خاطئة تفسد فطرته وذكاءه الطبيعي .

وقد انتشرت المعلومات الخاطئة عن الجنس والأعضاء الجنسية بسبب التكتم أو السرية التي تحاط بها شأنها في ذلك شأن الاشاعات التي تروج في الخفاء ويتهامس بها الناس سراً فإذا بالحقائق تسقط من الأفواه حقيقة بعد حقيقة ومن فم إلى فم .

★ ★ ★

بالرغم من أن جسد المرأة كان أكثر حظاً من نفسها وعقلها ، وأنه لم يتعرض لذلك الانكار الذي تعرضنا له ، إلا أن المجتمع لم يترك جسد المرأة على حالته الطبيعية .

إن الفكرة التي شاعت خطأ منذ التاريخ البعيد على أن الرجل سيد المرأة ، وإنها ليست إلا أداة لامتاعه ووعاء لأطفاله قد أباحت للمجتمع أن يستأصل من جسد المرأة مايشاء ويهمل مايشاء لتصبح المرأة مجرد الرحم الذى ينجب الأطفال .

وخيم الظلام والإهمال على أعضاء المرأة التي لا تلعب دوراً في عملية الإنجاب والولادة . بل إن بعض هذه الأعضاء كانت تستأصل من جسد المرأة تماماً ، وبالذات تلك الأعضاء التناسلية الحساسة لمتعة الجنس .

وكم من رجل عاش مع امرأة سنوات وسنوات ومارس معها الجنس وأنجب منها عشرات الأطفال ثم مات دون أن يعرف أن هذه المرأة تحتوي فى جسمها على أعضاء تناسلية أخرى غير ذلك المهبل الذي عرفه عن طريق علاقته الجنسية بها والرحم الذي حملت فيه أطفاله ، ودون أن يعرف أن هذا المهبل وهذا الرحم أقل أعضاء المرأة التناسلية إحساساً بالجنس لأن وظيفتهما الأساسية ليست الجنس وإنما الحمل والولادة .

ولاشك أن « البظر » (عضو المرأة التناسلى الخارجي) هو أكثر أعضاء المرأة حظاً من الجهل والتجاهل والاهمال وفي بعض الأحيان ينظر إليه المجتمع نظرة عداء ويستأصله بالمشرط كما تستأصل الزائدة الدودية .

والبظر في جسم المرأة ليس زائدة دودية بل انه العضو الأساسي الذي عن طريقه تعرف المرأة لذة الجنس . فالبظر (شأنه شأن عضو التذكير في الرجل) يتميز بأنه العضو الوحيد الذي يشتمل على أنسجة قابلة للانتصاب أثناء الاثارة الجنسية وعلى أكثر الأعصاب حساسية بلذة الجنس وهو الذي يقود العملية الجنسية من أولها إلى آخرها ، وبدونه لاتصل المرأة إلى قمة اللذة التي يصاحبها الانزال وتنتهي به العملية الجنسية .

ويتشابه البظر مع عضو التذكير عند الرجل في شكله وتكوينه وشدة حساسيته وأهمية دوره في الجنس . ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فأصلهما واحد في الجنسين ، والخلايا التي تصنع البظر هي نفسها الخلايا التي تصنع عضو التذكير . لكن الذي يحدث خلال تطور الجنين أن البظر في الأنثي يتوقف عن النمو في مرحلة من المراحل وان عضو الذكر يستمر فى النمو فترة أطول .

لكن المجتمع وقد قرر لأسباب اقتصادية أن دور المرأة الوحيد في الحياة هو الإنجاب وخدمة الزوج والأولاد فقد رأى حرمان المرأة من اللذة الجنسية التي قد تشغلها عن الدور الذي رسمه المجتمع لها .

وقد نتج عن هذا أن جهل الرجل بظر المرأة وتجاهله ، ولم يعرف إلا المهبل لأنه الأداة الوحيدة لامتاعه .

وتصور الرجل بسبب الجهل انه مادام يصل هو إلى قمة اللذة عن طريق مهبل المرأة فلابد ان المرة أيضاً تصل إلى قمة اللذة عن طريق المهبل . وبسبب الأنانية لم يستطع الرجل أن يكتشف خطأه ويتعرف على الطريق الذي يمكن أن يصل بالمرأة إلى اللذة .

وتصور بعض الرجال أن عنق الرحم (وهو الجزء السفلى من الرحم الذي يسد فتحة المهبل العلوية) هو أكثر أعضاء المرأة إحساساً بالجنس ، ويظنون أن عضو الرجل إذا ما لامس هذا العنق أثناء العملية الجنسية فان ذلك أكبر مؤثر من حيث بلوغ المرأة قمة اللذة . ومن هنا الاعتقاد بأن حجم عضو الرجل عنصر هام في الكفاءة الجنسية ، وأن الرجل الأقوى جنسياً هو صاحب العضو الأكبر أو الأطول ، لأن مثل هذا الطول كفيل بالوصول به إلى عنق الرحم .

ولايدرى هؤلاء الرجال أن حجم العضو لايدل بحال على الكفاءة الجنسية عند الرجل ، وأن عنق الرحم ليس أكثر أعضاء المرأة إحساساً بالجنس كما يظنون ، بل إنه أقل أعضاء المرأة إحساساً بالجنس . والحقيقة أن عنق الرحم لايحس شيئاً على الاطلاق ، لا الجنس ، ولا اللذة ، ولا الألم ، وان كان أشد أنواع الألم كالذي ينتج عن الكي بالنار أو الكهرباء . والدليل على ذلك أن المرأة تصاب بقرحة في عنق الرحم وتذهب إلى الطبيب فإنه يعالجها بالكي الكهربائي لعنق الرحم دون أن يعطيها أي مخدر ودون أن تشعر بأى ألم .

وقد حرمت الطبيعة عنق الرحم من الاحساس حتى لا تموت المرأة من الألم حين يمر رأس الطفل المولود من فتحة ذلك العنق الضيق فالمعروف أن عنق الرحم والمهبل يصنعان القناة التي يولد منها الطفل ، وأنه لابد لهذين العضوين أن يتمددا ويتسعا ليهبط الطفل بغير ألم ، أو بألم بسيط تحتمله الأم الطبيعية . لقد خلق الرحم والمهبل ليخدما الولادة وليس الجنس .

لكن الرجل لايعرف ذلك ، ويركز في علاقته الجنسية مع المرأة على المهبل أو عنق الرحم ويتجاهل البظر ، وهذا هو أحد الأسباب في أن معظم النساء يتزوجن وينجبن عشرات الأطفال ثم يمتن ويدفن قبل أن يعرفن لذة الجنس أو يصلن مرة واحدة إلى قمة اللذة .

ومن ضمن المعلومات الخاطئة أن الرجل يتصور أنه الوحيد الذي يقذف حين يصل إلى قمة اللذة مع أن المرأة أيضاً حين تصل إلى هذه القمة يحدث لها شيئاً مشابهاً يسمى الانزال . لكن الرجل لايدرك ذلك لأن المرأة قلما تصل إلى القمة معه مهما طالت مدة العملية

الجنسية . وأحد أسباب ذلك هو جهل الرجل بأعضاء المرأة الحساسة وأهمها البظر .

١ ـــ وفي أبحاث كينزى (١٩٥٣) وجد أن ١٠٠٪ من الذكور يعرفون قمة اللذة في الجنس قبل بلوغهم سن ١٧ سنة ، على حين أن ٣٠٪ فقط من الاناث يعرفن هذه اللذة قبل الزواج ، وأن قمة اللذة في الجنس لاتعرفها النساء حقيقة قبل سن ٣٥ سنة وذلك بسبب الخبرة ، أو زيادة كمية الدم التي تغذي أعضاء المرأة بعد الحمل ، أو لتغلب المرأة على عقدها النفسية ... إلى غير ذلك من الأسباب .

وفى بحث والين (١٩٦٠) على ٥٤٠ زوجة وجد أن معظم هؤلاء الزوجات لم يعرفن قمة اللذة (الأورجازم) في علاقتهن مع أزواجهن ، وأن هذه العلاقة الزوجية لم تكن تشبع رغبتهن في الجنس ولكنها كانت ترضيهن نفسياً من حيث القرب من الزوج وارضاؤه وكان هذا الرضا النفسي يصرفهن عن الرغبة في بلوغ قمة اللذة في الجنس .

وكذلك وجد شيفرز (١٩٦٤) في أبحاثه أن المرأة لم تكن تنظر إلى بلوغها قمة اللذة في الجنس كعنصر هام من عناصر أنوثتها ، كما أنه وجد أن بلوغ المرأة لقمة اللذة لم يكن تلقائياً بقدر ما كان مصنوعاً أو أمراً تتدرب عليه المرأة .

ومن أهم النتائج التي وصل اليها ماسترز وجونسون من أبحاثهما هي مايأتي :

١ ـــ بصرف النظر عن الفروق التشريحية فإن بلوغ قمة اللذة في الجنس عند الرجل والمرأة متشابهان من الناحية الفسيولوجية . ففي

كلا الجنسين تحدث نفس العمليات الفسيولوجية من حيث رد الفعل واستجابة العضلات ، واندفاع الدم في الأعضاء حتى درجة معينة ، وان قمة اللذة تحدثها العضلات نفسها في الذكور والإناث .

٢ ـــ ليس هناك مايسمى ببلوغ قمة اللذة عن طريق المهبل وحده بدون بلوغ قمة اللذة عن طريق البظر . فإن اللذة عن طريق المهبل والبظر تكونان وحدة تشريحية واحدة . وأن بلوغ قمة اللذة عملية تنتشر في جميع أعضاء المرأة الجنسية ، وهي عملية واحدة لا تتغير بتغير شكل الاثارة الجنسية أو موضعها .

٣ ـــ إن البظر يلعب دوراً هاماً وأساسياً في بلوغ المرأة قمة اللذة .

٤ ـــ إن المرأة شديدة الحساسية للمؤثرات النفسيَة ، وعليها أن تتخلص من عقدها النفسية وخوفها أو خجلها ، فإن أى شرود لذهنها يقلل من درجة انفعالها .

وقد أضاف شيرفي (١٩٦٦) بعض النتائج الأخرى أهمها الآتى :

١ ـــ إن البظر أكثر أهمية وأكثر حساسية للجنس من الثلث السفلي من المهبل . وعلى هذا فإن البظر هو أكبر عضو حساس للجنس عند المرأة وليس المهبل . ولهذا فإن البحث عن لذة الجنس من خلال المهبل كنوع من النضج الجنسي والنفسي للمرأة إنما هو بحث غير طبيعى .

وينقسم المهبل إلى جزئين . الجزء العلوي ويكون ثلثي المهبل وهو جزء غير حساس ليس له دور في الجنس أو اللذة الجنسية . أما الجزء

الثاني وهو الثلث السفلي من المهبل فهو حساس للجنس ولكنه أقل حساسية من الشفرين ، وهاتان أقل حساسية من البظر .

وتقول د. باردويك إن النساء اللائي يتصورن أنهن يصلن إلى قمة اللذة عن طريق المهبل فقط يتجاهلن الاثارة التي تحدث للبظر وهن يحاولن بذلك أن يظهرن « نضوجهن الجنسي » ـــ فهناك فكرة نفسية خاطئة توهم المرأة أن النضج الجنسي معناه أن يكون المهبل هو مبعث اللذة الجنسية ، وأن إثارة البظر إنما هي رغبات الطفولة أو المراهقة وليس المرأة الناضجة .

إن اللذة الجنسية عند المرأة واحدة ، ليس هناك شيء اسمه لذة عن طريق البظر ، ولذة أخرى عن طريق المهبل . فأعضاء المرأة متصلة اتصالاً عضوياً لا انفصام فيه . لكن هذا الفصل بين لذة البظر ولذة المهبل قد حدث صناعياً بسبب أفكار فرويد ونظرية التحليل النفسي التي اعتبرت البظر عند المرأة عضواً ذكرياً ايجابياً وضع خطأ في جسد المرأة السلبي .

وبسبب هذا فقد أصبحت النساء يفضلن الاثارة عن طريق المهبل لأسباب نفسية ، ويفضلن الاثارة عن طريق البظر لأسباب جنسية .

وبهذا التخبط وعدم الفهم ، وبسبب العقد النفسية أيضاً واعتبار اللذة الجنسية إثم وعيب فإن معظم النساء لايعرفن شيئاً عن قمة اللذة وكل ما يعرفنه في الجنس هو تلك اللذة الضعيفة أو الرضا النفسي بسبب ارضاء الرجل .

وتصف د . باردويك ثلاثة أنواع من قمة اللذة عند المرأة . النوع المنخفض ، والنوع المتوسط ، والنوع المرتفع . وتقول باردويك إن

النوع المرتفع يشبه قمة اللذة عند الرجل ، وتصل إليه المرأة بعد خبرة معينة ، وبعد أن تتدرب المرأة على أن تتخلص من عقدها النفسية وخوفها وخجلها وتستجيب للذة بطريقة طبيعية . ولو أن المرأة عاشت حياة طبيعية خالية من التخويف والعقد منذ الطفولة فإنها تبلغ قمة اللذة بسهولة وتلقائية كالرجل سواء بسواء .

إن عدم إحساس المرأة بلذة الجنس يسمى علمياً باسم البرود الجنسي ، وهو أكثر الأمراض الجنسية والنفسية شيوعاً بين النساء . ولا أعتقد أن هناك احصائية علمية صحيحة يمكن أن تدلنا بحال من الأحوال على نسبة اصابة النساء بالبرود الجنسى . فالمرأة الباردة جنسياً قد تجهل انها مصابة بالبرود الجنسي ، وذلك أنها تجهل الجنس ذاته ، وتجهل معنى لذة الجنس ، أو قمة هذه اللذة ، وتظن أن الجنس ليست له لذة ، أو ليست له قمة . ومن المعروف طبياً أن البرود الجنسي قد يقترن أثناء العملية الجنسية بتهيج مهبلي شديد ، بل أن هذا التهيج قد يحدث بدون أى مؤثر مباشر للأعضاء التناسلية للمرأة .

وفي بعض حالات أخرى يستجيب المهبل استجابة ضئيلة رغم كل المؤثرات المباشرة للأعضاء التناسلية للمرأة أثناء العملية الجنسية . ويرجع بعض العلماء السبب في ذلك إلى أن كثيراً من النساء يعانين من القلق خشية الحصول على قمة اللذة ، وأن هذا القلق أقوى من رغبتهن أو إرادتهن في الحصول على اللذة .

وتنعكس عقد الرجل النفسية والجنسية على المرأة وينتج عنها البرود الجنسى . ولعل أهم عقد الرجل النفسية والجنسية أنه يفصل بين الحب والجنس فهو في معظم الأحوال يشتهي المرأة التي لايحبها ،

أما المرأة التي يحبها فإنه قد يعجز عن الاتصال بها جنسياً أو أنه يتصل بها جنسياً بشرط أن تظل هى المحبوبة العذراء العفيفة وبمعنى آخر الباردة جنسياً . وتعتقد الزوجات على هذا النحو أن البرود الجنسي هو صفة الزوجة المحترمة ، فإذا بها تتفاخر ببرودها الجنسي . ويصبح الاستمتاع الطبيعى بالجنس إنما هو صفة المومسات والعشيقات فحسب . ويستمتع كثير من الرجال بهذا الانفصام في شخصياتهم ، وتصبح لكل منهم زوجة باردة شبه مهجورة وعشيقة مرغوبة ولكنها محتقرة .

مفهوم العــذرية

أغلب الناس يجهلون الكثير عن ذلك الشيء الذي اسمه غشاء البكارة ويعتقدون أن كل بنت لابد وأن يحتوي جسدها على هذا الغشاء ، وأن هذا الغشاء لابد وأن يفض في اللقاء الأول بين الفتاة والرجل ، وأن نتيجة هذا الفض لابد وأن يكون دماً أحمر تراه العين فوق الملاءة . فهل هذا صحيح ؟ والاجابة على هذا السؤال هي : لا.

ان غشاء البكارة ليس نوعاً واحداً وإنما عدة أنواع . النوع الشائع ويوجد في حوالى ٧٥ ٪ من البنات . وهو غشاء رقيق غير مطاط يسد مدخل المهبل وفى منتصفه فتحة دائرية صغيرة يمر منها الحيض كل شهر وهي فتحة ضيقة تسمح بمرور طرف الأصبع . وهذا الغشاء حين يتمزق (لأسباب مختلفة ومنها الاتصال الجنسي بالرجل) تسقط منه بعض قطرات دم وقد تشعر الفتاة بألم خفيف أو لاتشعر بأى ألم على الاطلاق وهذا يتوقف على حجم عضو التناسل عند الرجل وعلى الطريقة التي يفض بها الغشاء .

أما بقية البنات (٢٥ ٪ تقريبا) فقد خلقن بأغشية مختلفة لايسيل منها عند الاتصال الجنسي بالرجل قطرة دم واحدة . أحد أنواع هذه الأغشية هو النوع المطاط الذي يسمح بمرور عضو الرجل دون ألم ودون دم . (حالة العروس السابقة) . وهناك الغشاء ذو الفتحة

المتعرجة حيث لاتكون الفتحة دائرية ومنتظمة وإنما متعرجة وبالتالي يصبح محيطها أكثر اتساعاً من الفتحة الدائرية بحيث يحدث الاتصال الجنسي دون تمزق خاصة إذا كان عضو التناسل عند الرجل أصغر قليلاً من المعتاد .

وهناك أيضاً الغشاء ذو الفتحات الصغيرة المتعددة « كالغربال » الذي يتمزق بسهولة بلا ألم أو دم . ومن المعروف طبياً أن نسبة قليلة من البنات يولدن بغير غشاء على الاطلاق ، كما أنه في بعض الحالات النادرة أيضاً تولد البنت بغشاء سميك مسدود يحتاج إلى مشرط الطبيب عند البلوغ ليخرج منه دم الحيض .

ومن الناحية الطبية فإن غشاء البكارة ليس له أهمية فسيولوجية أو بيولوجية مثله مثل الزائدة الدودية ، وليس هناك من ضرر على صحة الفتاة وجد الغشاء أم لم يوجد ، وما إذا كانت فتحته دائرية متعرجة أو منتظمة ، كل ما يهم الطب أن تكون هناك فتحة تسمح بمرور الحيض .

ومن المعروف أن أعضاء الجسم الانساني تناسلية أو غير تناسلية تختلف في أحجامها وليس هناك جسم مماثل للجسم الآخر تماماً كالبصمات فلكل منا جسمه وبصمته وتكوينه الخاص به . وكذلك تختلف الأعضاء التناسلية للرجال والنساء ، وكما يتفاوت حجم عضو التناسل من رجل إلى رجل كذلك ليس هناك مقياس ثابت موحد لفتحة غشاء البكارة في جميع البنات ، ولكن ما أتعس تلك الفتاة التي تتزوج بالصدفة رجلاً يقل محيط عضو تناسله عن محيط فتحة غشائها ملليمترا أو بضع ملليمترات .

* * *

فتاة ريفية في السادسة عشرة تقريباً جاءت إلى عيادتى مع زوجها . كانت شاحبة الوجه نحيلة يخيل لمن ينظر إليها أنها طفلة في الثانية عشرة فجسمها أصغر من المعتاد . وتصورت أن سوء التغذية هو سبب ضمور جسمها ، أما اصفرار لونها الشديد فجعلني أشك في أن هناك تسمماً في الدم . وحينما خلعت ملابسها الريفية الواسعة لاحظت كبر بطنها وقال زوجها انه تزوجها منذ عام واحد وأنها بدأت تشكو من الألم في بطنها وأنه يعتقد أنها حامل في الشهر الخامس أو السادس .

وسألتها السؤال التقليدى : منذ متى انقطع عنك الحيض ؟

فردت قائلة انها لم تر فى حياتها دم الحيض .

وقال زوجها انها لاتزال صغيرة السن ولم تبلغ الرشد بعد وربما يكون الحمل هو السبب في عدم ظهور الحيض .

وبفحص الفتاة اتضح لي عدم وجود أي جنين في بطنها في الشهر السادس أو الخامس وإنما هناك ورم غامض الملامح وبالطبع لجأت إلى فحص الرحم عن طريق المهبل وهنا ظهرت لي حقيقة دهشت لها . فقد كان المهبل مسدوداً تمام بغشاء سميك مطاط انضغط تحت أصبعي بمرونة شديدة وكاد طرفه أصبعي يصل إلى عنق الرحم لايفصله عنه الا سمك الغشاء .

وسألت الزوج عما يذكره عن ليلة الزفاف .

وبسرعة قال الزوج : ليلة الزفاف اتصلت بزوجتى ولم يكن هناك دم لكنني لم أشك في الأمر لأنها كانت لاتزال طفلة صغيرة ولم تبلغ الرشد .

وقلت للزوج أن زوجته لاتزال عذراء وأنها ولدت بغشاء بكارة سميك مسدود وأن هذا الورم في بطنها هو دم الحيض الذي تكوم شهراً وراء شهر ولم يجد منفذاً إلى الخارج .

وبالمشرط فتحت الغشاء فاندفع الدم القديم المتراكم إلى الخارج . ونهضت الفتاة من فوق المنضدة وكأنما تفتح عينيها لأول مرة بعد مرض مزمن أو تسمم طويل الأمد .

وقد قرأت مرة عن حادثة قتل تشبه هذه الحالة . فقد عثر البوليس على جثة فتاة حامل وأعتقد جميع الناس انها قتلت دفاعاً عن الشرف ولكن الطبيب الشرعي شرح الجثة وأعلن أن كبر بطن الفتاة لم يكن بسبب الحمل وإنما هو دم الحيض المتجمع شهراً وراء شهر بسبب غشاء البكارة السميك المسدود .

• ★ ★ ★

وكم من حوادث أليمة قرأنا عنها في الصحف والمجلات . ولعل أحدث قصة قرأتها في المجلة الطبية العراقية الصادرة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٧٢ بلسان طبيب شرعي عراقي معروف اسمه الدكتور وصفي محمد علي بالحرف الواحد :

« أتذكر وقفة لي أمام المحكمة الكبرى ببغداد استشرت خلالها عن تصرف أحد الأطباء الرسميين وابداء الرأي فيما إذا كان يتفق والسلوك المهني الصحيح ، وقد طلب إليه فحص بنت بغية التأكد من أنها مزالة البكارة قديماً أو حديثاً أو أنها لازالت بكراً ، والسبب الذي ألجأ الحاكم إلى طلب الفحص هو أن زوجها أخبر أهلها ليلة زفافها بأنه يشك في عفاف البنت بحجة عدم حصول أى نزف دموي أثر الجماع

وفحص الطبيب البنت وخرج فسأله أهلها عن النتيجة وألحوا عليه فقال لهم إن البنت ثيب (ليست بكرا) ومن مدة قديمة ، فوقع الخبر عليهم كالصاعقة واشتدت ثورة الغضب عند ابن عمها فقتلها بعد يوم واحد ، بالرغم من أنها — كما أخبر المحقق — أكدت له بأن ماذكره الطبيب لايتفق مع الواقع وأن بشراً لم يمسها . وقد شكل الحاكم لجنة لفحص الجثة ، وقدمت اللجنة تقريرها بأن غشاء البكارة كان غير ممزق وهو من النوع المطاطي وهكذا اتضح خطأ تشخيص الطبيب » .

وفي نفس هذا المقال كتب الدكتور وصفي محمد علي أن الغشاء المطاطي ليس نادراً في العراق كما يتضح من الوقائع التي قام بفحصها خلال سنين طويلة . فقد ظهر أن نسبة وجوده لآخر إحصاء هي ١١,٢٠٪ كما يتضح من الجدول الآتي :

النـــــوع	العـــدد	النسبة المئوية
متوســـط	١٢٦٥	٤١ر٣٢
سميـــك	٩٥٩	٣١ر٣٢
رقيـــق	٤٩٥	١٦ر١٦
مطـــاطي	٣٤٣	١١ر٢٠
المجموع الكلي	٣٠٦٢	١٠٠ر٠٠

عدد ونوع الأغشية البكارية — تبعاً لطبيعة نسجها — المفحوصة في معهد الطب العدلي (الطب الشرعي) — ببغداد خلال سنة ١٩٤٠ — ١٩٧٠ .

ومن الحقائق الطبية المعروفة كما سبق أن ذكرت أن غشاء البكارة له فتحة صغيرة قد تضيق وقد تتسع وقد تتعرج وقد تنتظم وأنه في معظم الفتيات يتمزق عند أول لقاء بالرجل وينتج عن هذا التمزق ألم بسيط وبضع قطرات دم . وهذه الحقيقة بطبيعة الحال تثبت لنا أن هذا الغشاء رقيق ، لأنه لو كان سميكاً ومتيناً لما كان من السهل أن يمزق على هذا النحو ولصاحب عملية التمزق آلام أشد ونزيف أكثر .

وهناك حالات نادرة حين يكون الغشاء سميكاً على غير المعتاد وتصبح عملية فضه في ليلة الزفاف مؤلمة للفتاة وقد تحتاج إلى طبيب وينتج عن تمزق الغشاء نزيف وليس مجرد بضع قطرات دم .

وهناك حالات نادرة أيضاً حين يكون الغشاء رقيقاً جداً أرق من المعتاد فإذا به يتمزق عند البنت أثناء استخدامها لفوطه الحيض .

أما الشائع والمعتاد فهو ذلك الغشاء الذي يتمزق في أول لقاء بالرجل ولايصحب ذلك إلا ألم طفيف وقطرات قليلة من الدم . ولكن هذا الغشاء قد يتمزق لأسباب أخرى ولاينتج عن تمزقه إلا ألم طفيف وبضع قطرات دم .

* * *

فتاة في الثامنة عشرة جاءتني مع والدها . والقصة انها فتاة رياضية تمارس ركوب الخيل والدراجات . قرأ والدها صدفة في احدى

المجلات أن بعض الرياضات مثل ركوب الدراجات أو ركوب الخيل أو القفز من مكان مرتفع قد يتسبب في تمزيق غشاء البكارة عند الفتاة . ومنذ ذلك الحين وهو قلق وقد منع ابنته من ممارسة رياضتها ولكنه يريد أن يطمئن على سلامة غشائها قبل أن يزوجها لابن خالتها .

وسألت الفتاة عن الرياضة التي كانت تزاولها وعما إذا كانت تذكر حادثة معينة اصابتها بشيء من الألم أو أى قطرات من الدم لكن الفتاة أجابت بأنها لم تتعرض لأى حادث وأن أباها مبالغ في قلقه وانه حرمها من رياضتها التي تحبها كما تحب الحياة وقالت بشيء من الأسى : « إذا كان الزواج معناه ألا أمارس الرياضة فأنا لا أريد أن أتزوج وأفضل الرياضة على الزواج » .

وكنت مقتنعة تماماً بحق الفتاة في الرياضة ونصحت الأب بأن يكف عن قلقه وأن يترك فتاته تمارس رياضتها لكنه لم يقتنع وألح علي أن أفحصها ليطمئن .

وفحصت الفتاة ، واتضح لي أن الغشاء من النوع المعتاد ذي الفتحة المنتظمة الدائرية ولكن في أحد جانبيه شق صغير طوله ملليمتران أو ثلاثة وقد نتج هذا الشق من تمزق جانبي بالغشاء أثناء الحركة الرياضية العنيفة . وشرحت الأمر للأب فزاد قلقه واضطرابه وسألني عما إذا كان التمزق الصغير قد أفقد ابنته عذريتها وانه لن يكون هناك « دم » ليلة زفافها . وقلت للأب الحقيقة وهي أن مثل هذا التمزق قد زاد بطبيعة الحال من اتساع فتحة الغشاء وانه قد لايكون هناك « دم » ليلة الزفاف خاصة إذا تصادف أن تزوجت رجلاً له عضو تناسل أصغر من المعتاد .

وهنا بلغ بالأب القلق حداً كبيراً فارتجف وهو يتساءل في حيرة : وما العمل يادكتورة ؟.

وقلت : لا شيء . عليك فقط أن تشرح الأمر للرجل الذي سيتقدم للزواج من ابنتك .

وقال الأب في حزن شديد : هذه أكبر كارثة ألمت بي .

وقلت : ما الكارثة ؟ هل فقدت ابنتك ذراعها أو ساقها أو عيناً من عينيها ؟

وقال الأب : لو فقدت عيناً لكان ذلك أخف ولكن أن تفقد أعز ماتملك

وهونت الأمر على الأب وقلت له أن أعز ماتملكه ابنته ليس هذا الغشاء الذي تمزق دون أن تشعر وهي تمارس رياضتها وأن أعز ماتملكه ابنته هو أعز مايملكه أى انسان وهو إرادته الحرة وصدقه مع نفسه ومشاركته في صنع حياة أفضل له وللمجتمع .

لكنه قال : ومن سيصدق انها الرياضة يادكتورة ، ما من أحد إلا وسيشك في أخلاقها وشرفها .

وردت الأبنة في غضب : أنا واثقة من نفسي ولا تهمني أى شكوك والرجل الذي سيشك في شرفي لن أقبله !

واعجبتني الفتاة لثقتها في نفسها لكن الأب كان قد أصبح على وشك الانهيار وطلب مني أن أوقع شهادة طبية تثبت أن التمزق الذي حدث في الغشاء كان بسبب الرياضة وليس شيئاً آخر . وأعطيته

الشهادة لأهدئه فأمسكها بين يديه بعناية وحرص كأنه يمسك حياته ذاتها وأخذ ابنته في يده وانصرف .

★ ★ ★

فتاة في العشرين من عمرها جاءتني مع أمها ناظرة احدى المدارس الابتدائية . طلبت مني الأم أن أفحص ابنتها واطمئنها على سلامة غشائها . وسألت الأم عن السبب الذي جعلها تشك في سلامة غشاء ابنتها . وقالت الأم انها اكتشفت أن ابنتها تعودت كل صباح حين تغتسل أن تمد أصبعها إلى الغشاء لتقيس فتحته وانها تخشى أن تكون ابنتها بهذا الفعل قد أصابت غشاءها بسوء دون أن تدري .

وبسؤال الفتاة قالت ان أمها كانت تحذرها دائماً من القفز أو نط الحبل خشية أن يتمزق غشاء بكارتها لكن الفتاة كانت تحب « نط الحبل » وكانت تمارسه في المدرسة . لكن كلام أمها كان قد ترسب في نفسها وجعلها تعيش في خوف دائم على غشائها . وفى يوم وهي تغتسل بلغ بها القلق مداه فمدت يدها لتطمئن إلى وجود الغشاء ، وحينما عثرت بطرف أصبعها على الفتحة الصغيرة فزعت وظنت أن الغشاء تمزق . لكن احدى صديقاتها قالت لها ان لكل غشاء فتحة صغيرة تسمح بمرور الحيض . ومن هنا بدأت الفتاة تقيس هذه الفتحة لتطمئن على أنها فتحة ضيقة لاتتسع يوماً بعد يوم بعد نط الحبل .

وفحصت الفتاة واتضح ما أكد كلامها . فالغشاء سليم ولكن فتحته كانت قد اتسعت ليس بسبب نط الحبل ولكن تكرار وضع الأصبع في الفتحة جعل محيطها يرتخي بعض الشيء فاتسعت الفتحة .

وكثيراً مايحدث هذا الاتساع في فتحة الغشاء في الفتيات اللائي يمارسن العادة السرية بكثرة في فترة المراهقة .

وقالت الأم في ذعر : هل سيؤثر ذلك على عذريتها ؟

وقلت للأم الحقيقة وهي ان ابنتها حين تتزوج قد لاتكون هناك قطرات دم في اللقاء الأول مع الرجل .

وكادت تصاب الأم بانهيار عصبي لكني هدأتها وأعطيتها شهادة طبية تبرىء ابنتها من المسئولية . وكانت الابنة بريئة فعلاً ، أما المذنب الحقيقي فهو الأم بتربيتها الخاطئة لابنتها وبث الذعر والقلق في نفسها على الغشاء . بل لعل الأم أيضاً بريئة بسبب جهلها بالتربية السليمة وأن المذنب الحقيقي هو المجتمع الذي جعل مقياس الشرف ودليله غشاء رقيقاً معرضاً لكل مايمكن أن يتعرض له غشاء رقيق فى الجسم من اصابات وارتخاء ورضوض وخدش وتمزق . ويمكننا ان نتصور الضرر النفسي البالغ الذي تصاب به الفتيات في مجتمعنا حين يدركن أن في نهاية مهبلهن غشاء رقيق هو أعز مايملكن وعليه يتوقف مستقبلهن وشرفهن وحياتهن ، وان عليهن المحافظة عليه بكل الوسائل وان اقتضى ذلك أن تكف الفتاة عن الحركة والرياضة وأن تمشي وساقاها ملتصقتان وأن يتراكم الشحم فوق جسدها الكسول البطيء ، وأن يتراكم الوهم في نفسها ، وأن تعيش في قلق دائم على غشائها ، وأن تفقد كل مقومات النفس القوية والجسم الصحي القوي فلا تكاد تصلح بعد ذلك إلا لحياة باهتة باردة راكدة تعيشها في كنف زوج أثبتت له شرفها ليلة الزفاف ببضع قطرات دم ، وتحاول كل ليلة أن تثبت له هذا الشرف بجهلها وتجاهلها أي حركة

أو أى متعة توشي بخبرتها بذلك الذي يطلق عليه اسم الجنس .

★ ★ ★

عرفنا الآن بعض معلومات عن ذلك الغشاء الذي يجهله كثيرون منا ، وعرفنا أن عدم حدوث قطرات الدم ليلة الزفاف ليس معناه أن هذه الفتاة مارست الجنس من قبل . وإذا أضفنا إلى نسبة الخمسة والعشرين في المائة من البنات اللائي يولدن غير عذراوات بمفهوم العذرية السائد الخمسة في المائة من البنات اللائي يفقدن هذه العذرية بسبب حادث غير جنسي أدركنا أن حوالي ثلاثين في المائة من الفتيات يظلمن ظلماً بينا ليلة الزفاف . وكيف يقبل المجتمع أن يدين هؤلاء الفتيات وأن يوقع عليهن عقوبات وهن بريئات لايدرين شيئاً عن الذنب الذي يعاقبن من أجله .

ولكن المجتمع يقول انه لابد وأن يكون هناك دليل مادي على شرف البنت وانه إذا كانت الأقلية تظلم من وجهة النظر الطبية فان الأغلبية من البنات (حوالى ٧٠٪) يمكن الحكم على شرفهن بوجود هذا الغشاء ، والا فكيف يمكن الحكم على شرف البنت ؟!

وللرد على هذا السؤال أسوق نموذجاً من بعض الحالات التي كانت تتردد على عيادتي .

جاءتني حامل في الشهر الخامس . وحينما هممت بأن أفحصها عن طريق المهبل هبت مذعورة وأفهمتني انها لاتزال عذراء . وقصت علي قصتها . انها طالبة بالجامعة ولها زميل يحبها وهي تبادله شعوره لكنهما لم يفكرا في الزواج لأنه فاشل في دراسته ولاتعرف مستقبله بعد .

لكنهما كانا يلتقيان ومن حين إلى حين يمارسان الاتصال الجنسي السطحي ، دون أن يصاب غشاء البكارة بسوء . وفعلاً ظل غشاء البكارة سليماً ، لكن أحد الحيوانات المنوية استطاع في مرة من مرات الاتصال السطحي أن ينفذ من خلال فتحة غشاء البكارة وأن يسبح صاعداً إلى الرحم . وحملت الفتاة جنيناً في أحشائها رغم بقائها عذراء .

وطلبت مني الفتاة أن أخلصها من الجنين عن طريق فتح بطنها حتى تحتفظ بعذريتها فاعتذرت عن إجراء مثل هذه العملية وانصرفت الفتاة ، لكنني التقيت بها بعد بضع سنوات وعرفت أنها ذهبت إلى طبيب آخر وأخرج لها الجنين من بطنها وأنها تزوجت مهندساً ناجحاً وأنجبت طفلين .

وتخيلت يومها هذا المهندس الناجح فى ليلة زفافه وهو يقوم بالإجراءات والخبرات التقليدية للتأكد من عذرية فتاته ويسعده كل السعادة أن يجد غشاءها سليماً ، ولايكاد يهمه أن يرى شقاً طويلا في بطنها ، بل لايهمه أن يجد شقاً بأى طول في قلبها أو كبدها أو مخها ، ولكن أن يجد في غشاء بكارتها شقاً وإن كان طوله لايزيد عن ملليمتر فهذه هى الطامة الكبرى .

ولا أظن أن المجتمع يجهل ان هناك من الوسائل الصناعية مايعيد إلى الفتاة عذريتها التي فقدتها لأى سبب ، وأن الدم الذي يظهر ليلة الزفاف ليس دائماً دم العروس وإنما قد يكون دم دجاجة وضع في كيس أو دم الحيض ذاته حين تزف العروس وهي حائض ليظهر دم الحيض على أنه دم العذرية وغير ذلك من الحيل التي تجيدها الدايات والنساء من ذوي الخبرة بالرجال والحياة .

وكم من القصص والحالات شهدتها بعيني حينما كنت طبيبة بالريف . فلا تزال تقاليد الزفاف الغريبة سائدة في بعض قرانا ، حين تأتي « الداية » وتمسك العروس من ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح ، وتمد اصبعها ذو الظفر الطويل المدبب كالسكين (غالباً ماتطيل الداية ظفر اصبعها من أجل هذه المناسبة) — وبهذا الأصبع تفض الداية غشاء بكارة العروس وتجفف الدم الذي يسيل في « بشكير » أبيض يختطفه منها أبو العروس ويرفعه عالياً ليراه كل الناس ويشهدوا بأعينهم على شرفه وشرف ابنته .

وقد حضرت بنفسي بعض هذه الأفراح ، وبلغ بي الاستطلاع مداه في بعض الأحيان فجلست بجوار الداية لأشهد بدقة ما تفعله . في احدى المرات مدت الداية أصبعها بعنف داخل مهبل العروس وحينما لم تسقط إلا قطرات قليلة خدشت بظفرها المدبب جدار المهبل فسال الدم غزيراً كالنزيف وغرق البشكير بالدم وارتفعت الزغاريد ودقات الطبول ، وقلت للداية بصوت منخفض انها أحدثت جرحاً في المهبل ، لكنها همست في أذني أن ذلك ضروري ليكون الدم كثيراً فالناس يحكمون على شرف العروس بمقدار مايسقط على البشكير من دم .

وقالت الداية المجربة : حينما كنت أفض الغشاء فقط تسقط قطرات قليلة من الدم لايراها بوضوح عجائز الفلاحين ذوو الألسنة الطويلة ولهذا تدربت على أن أخدش بظفري الطويل جدار المهبل ليحدث ذلك النزيف . وقد أصبحت لي سمعة طيبة في البلد وكل الأسر تحرص على أن أقوم أنا (دون الدايات الأخريات) بفض أغشية البكارة في الأفراح .

ومعظم الأطباء الذين عملوا بالريف صادفوا كثيراً من الحوادث الأليمة بسبب هذه العادة المصرية الغريبة في فض غشاء البكارة بالأصبع . وفي بعض الأحيان يكون هذا الأصبع هو أصبع الداية المجربة ، وفي أحيان أخرى يكون أصبع الزوج ، وضرره في هذه الحالات أشد بشاعة لأنه أصبع غشيم غليظ لم يعرف إلا قيضة الفأس ، فإذا بهذا الأصبع يندفع بغلظته وجهله الأعمى في مهبل الفتاة الصغيرة ، يمزق الأنسجة الرقيقة ويغوص في اللحم والأعصاب محدثاً تهتكات قد لاتشفى مدى العمر . وأن أنسى تلك العروس التي حملوها إلي فى منتصف ليلة زفافها تنزف من مهبلها نزيفاً شديداً وحينما فحصتها اتضح لي أن هناك ثقبا كبيراً في المثانة بسبب أصبع الزوج الطويل الغليظ الذي نفذ من جدار المهبل ووصل حتى جدار المثانة فثقبه ثقباً كبيراً . وهناك كثير من الحالات والحوادث المشابهة التي يصادفها معظم الأطباء في الريف .

ولا يتسع هذا الكتاب إلى أن أسرد الحالات التي مرت بي سواء داخل عيادتي أو خارجها والتي تثبت للمجتمع أن وجود غشاء البكارة أو أن سقوط قطرات الدم ليس دليلاً على شيء .

وحينما تتضح هذه الحقائق لبعض الناس يتساءلون في ذعر : ولكن كيف نحكم اذن على شرف البنت ؟ ولكن ماهو مفهوم الشرف لدى هؤلاء ، هل الشرف هو مجرد أن يحافظ الانسان على أعضائه التناسلية ؟ هل البنت الشريفة هى تلك التي تحافظ على سلامة غشائها ولا تحافظ على سلامة تفكيرها وصدقها وقدراتها على العمل والانتاج في الحياة ؟ هل البنت التي تكذب تصبح شريفة لمجرد أنها ولدت

بغشاء بكارة ؟ هل من الممكن أن يكون الشرف صفة تشريحية يولد بها الانسان أو لايولد ؟ وإذا كان غشاء البكارة هو دليل شرف البنت فما هو الدليل على شرف الرجل ؟

ويقول بعض الناس أن شرف الرجل في غير حاجة إلى دليل . فهل معنى ذلك أن كل الرجال في حكم المجتمع شرفاء ؟ ويرد البعض قائلين أن شرف الرجل يختلف عن شرف المرأة « الرجل لايعيبه إلا جيبه » مثل من الأمثلة الشعبية الشائعة في مجتمعنا . ومعنى ذلك أن الرجل شريف طالما هو يعمل ويكسب مالاً بصرف النظر عن علاقاته الجنسية بالنساء ، بل إن الرجل في مجتمعنا يفخر بتعدد علاقاته مع النساء ويعتبر ذلك نوعا من الانتصار والفوز .

ومن هنا ندرك أن للمجتمع مقياسين للحكم على الشرف وانه فرض العفة على النساء وحدهن ونتج عن ذلك تلك الظاهرة الاجتماعية الغريبة ، وهي أن المرأة تتحاشى الرجل لتحافظ على شرفها ، لكن الرجل يطارد المرأة لأنه يريدها ولأن مطاردتها والاتصال بها لايعيبه في شيء ، ويظل الرجل يطارد الفتاة مستخدماً في ذلك شتى الحيل ، مرة الحب الجارف ، ومرة الوعود بالزواج ، ومرة التفاني في الاخلاص إلى الأبد ... الخ . وحينما تثق به الفتاة وتصدقه يقول عنها المجتمع انها سقطت وإذا غدر بها الرجل ولم يتزوجها يحكم عليها المجتمع بعدم الشرف ويقضي عليها وعلى مستقبلها ومستقبل طفلها ، أما الرجل فينطلق سعيداً ناجحاً يكرر تجاربه تحت سمع المجتمع وبصره .

★ ★ ★

جاءتني إلى العيادة ذات يوم ، فتاة في السابعة عشرة تقريباً ، نحيلة شاحبة ، أصابع يديها مشققة متورمة . أدركت على الفور أنها خادمة في بيت من بيوت الأسر المتوسطة ، تغسل كل يوم تلالاً من الصحون الملوثة بالسمن والدهن والطبيخ المسبك . كانت تبكى وبارتجاج حسدها النحيل وهى تنشج لاحظت انتفاخ بطنها . وقصت علي قصتها . جاءت مع أبيها من الريف إلى القاهرة لتعمل خادمة عند موظف كبير بوزارة العدل . قالت لي إنه وكيل الوزارة أو شيئاً من هذا القبيل . وفي البيت الكبير ذي العدد الكثير كانت تعمل ليل نهار ، تغسل وتمسح وتساعد الطباخ في طهي الطعام واعداد المائدة . كانت ترص أطباق اللحم أمام أفراد الأسرة ولايكاد يتبقى لها إلا الفتات ، وأول كل شهر يأتي أبوها ويأخذ راتبها ويذهب إلى القرية . ولايترك لها شيئاً . كان الطباخ ينام في حجرة فوق السطح أما هي فكانت تنام على دكة خشبية في المطبخ . كانت راضية بحالها تعمل بلا كلل أو ملل لترضي سيدتها صاحبة البيت ولترضي أباها في القرية . وكان كل شيء يمكن أن يسير على هذا الحال لولا أن سيدتها تلقت نبأ وفاة أحد أقاربها فسافرت إلى الزقازيق بضعة أيام .

ومسحت الفتاة دموعها وهي تقول : لم أكن أتصور أن سيدي البيه يمكن أن يفعل هذا .

وسألتها : ماذا فعل ؟

قالت : جاءنى في الليل ولم أستطع أن أمنعه .

وقلت: ثم ماذا ؟

قالت : لم أكن أعرف شيئاً وظننت أن شيئاً لم يحدث ، وحينما

عادت سيدتي خفت أن أقول لها شيئاً . ومرت الأيام وأحسست أن بطني تكبر وظننت أنها ليست إلا السمنة ، لكن سيدتي لاحظت كبر بطني فسألتني وهددتني بالطرد فذكرت لها حادثة سيدى البيه . وكنت أظن أنها ستعاقبه هو لكنها عاقبتني أنا وطردتني من بيتها وهددتني بأن تفضحني لدي أبي إذا أنا ذكرت اسم سيدي البيه . وهربت من أبي لأنه لو عرف سيقتلني . ذهبت إلى طبيب ليجهضني لكنه طردني من العيادة وقال أن القانون يمنع الاجهاض مع أنني سمعت من بعض الناس انه يجهض النساء نظير عشرين جنيهاً للعملية ، ولكني لا أملك إلا سبعين قرشاً وفرتها من البقشيش الذي كنت آخذه من ضيوف سيدتي .

لا أظن أن أحداً يستطيع أن يتهم هذه الفتاة البائسة بأنها غير شريفة ومع ذلك فإنها في نظر المجتمع فتاة حامل بغير زواج أي فقدت شرفها وبالتالي تستحق العقاب . وتواجه هذه الفتاة التعسة المجتمع وحدها وقد تنهي حياتها بيدها أو بيد أبيها أو من أثر محاولتها التخلص من الجنين أو تعيش حياة ذليلة راكدة هي والموت سواء بسواء . أما سيدها البيه فيظل يعيش في المجتمع الواسع العريض يستمتع بحياته ونجاحه وشرفه المصون في ظل حماية المجتمع والقانون .

وأظن أنه لايخفى على أحد ماتتعرض له الأطفال البنات أحياناً من حوادث اعتداء ، وقد لاتكون البنت قد بلغت الثامنة من العمر بعد وتفاجأ بذلك الشاب الطائش الذي يعتدي عليها ، وقد يكون هذا الشاب خادماً أو بواباً ، وقد يكون أحد أفراد أسرتها . ولا أعني بأحد أفراد أسرتها ابن العم أو ابن الخال فحسب ، ولكنه قد يكون العم نفسه أو الخال نفسه ، وفي بعض الأحيان يكون الأخ ذاته .

وقد تنسى الطفلة الصغيرة الحادث أو تذكره كالحلم المزعج وتفاجأ حين تكبر وفي ليلة الزفاف أنها غير عذراء . وقد لاتنسى تماماً ، ويظل ذلك الحادث الأليم كامناً في نفسها يعذبها ويفتك بصحتها النفسية طوال حياتها ، هذا إذا نجت من العقاب الذي يتربص بها حين تكبر ، وقلما تنجو من العقاب في معظم الأحوال .

ومما يزيد المأساة أن الرجل المعتدى لايبوح بالسر ، ولايعترف بفعلته لينقذ الفتاة ، بل إنه أحياناً مايشترك في العقاب أو يوقعه بنفسه على الفتاة من أجل حماية شرفه أو شرف الأسرة .

وكم سمعنا أو قرأنا عن مثل هذه المآسَى ، لعل أقربها تلك التي قرأناها في جريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٧٢ تحت عنوان « أحب العمابَنة شقيقه فأرغمه أخوها على قتلها بالسم » ، وتقول كاربن هورني الطبيبة النفسية العالمية أن الناس يظنون أن مثل هذه الحوادث نادرة ، ولكن نظراً لأنها تحدث في سرية شديدة فلا أحد يعرفها مع انها شائعة . وفي سن الثامنة يمكن أن تفقد البنت غشاءها بسهولة وتنسى الحادث .

★ ★ ★

أعتقد أننا في حاجة إلى أن نفهم جيداً ماذا نعني بكلمة الشرف . من هو الانسان الشريف ؟ وإذا كان الشرف هو الصدق مثلاً فإن الرجل الصادق يصبح شريفاً وكذلك المرأة الصادقة تصبح شريفة . أن المقاييس الأخلاقية التي يضعها المجتمع لابد أن تسري على جميع أفراده بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو الطبقة الاجتماعية . والمجتمع الذى يؤمن بالعفة في الجنس كقيمة خلقية فلابد أن تسري

هذه القيمة على جميع أفراد المجتمع ، أما أن تسري على جنس دون الجنس الآخر أو على طبقة دون الطبقة الأخرى فهذا يدل على أن هذه العفة ليست قيمة أخلاقية وإنما هي قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم .وقد رأينا في المجتمعات الرأسمالية كيف كان الحكام الرأسماليون يفرضون على العمال والاجراء قيماً أخلاقية معينة تضمن زهدهم في الحياة وقناعتهم بأجورهم الضئيلة وخضوعهم للقوانين الرأسمالية الجائرة وتطوعهم في الجندية للدفاع عن مصالح هؤلاء الحكام وأطماعهم الاستعمارية ، هذا في الوقت الذي يستمتع فيه الحكام الرأسماليون بقيم الجشع والنهم والربح المتزايد والافراط في كل المتع التي حرموها على الطبقات الكادحة .

وإذا كان الرجال هم السادة في المجتمع دعوا النساء إلى الالتزام بقيم الشرف والعفة ليضمنوا خضوعهن على حين ينطلق الرجال مبيحين لأنفسهم الاستمتاع بكل ماحرموه على النساء .

ويخفي المجتمع الدوافع الاقتصادية والاستغلالية من وراء هذه القيم ويسوق دوافع أخلاقية منها الشرف والفضيلة والعفة . وحينما نسأل المجتمع لماذا يفرض العفة وحدها على المرأة يرد المجتمع بأن هذا طبيعي لأن المرأة غير الرجل ، وأن الطبيعة هي التي صنعت كل الفروق بين الرجل والمرأة وليس المجتمع . وحينما نسأل المجتمع ماهي الفروق بين الرجل والمرأة يصيح قائلا أنها فروق ضخمة جداً أخدها أن المرأة هي التي تحمل ثمرة العلاقة الجنسية في رحمها جنينا . ونسى المجتمع أن الحمل والولادة لم يصبحا قيداً على المرأة إلا بفعل المجتمع حين قرر أن الجنين الذي ينمو في أحشائها ويتغذى بدمها ولحمها ليس من حقها

وإنما هو من حق الرجل وحده . يمنحه اسمه فيصبح طفلاً شرعياً ويعترف به المجتمع ، أو لايمنحه اسمه فيحكم عليه المجتمع بالاعدام وهو لازال وليداً يرضع .

ان المجتمع هو الذي قيد المرأة لأسباب من عنده ، أما الطبيعة فهى بريئة وحقائق العلم والطب التي سأورد ذكرها فيما بعد تؤكد أن الفروق الضخمة التي وضعت بين الرجل والمرأة ليست من صنع الطبيعة .

البنــت

حينما تولد البنت ، وبالرغم من أنها لا تستطيع النطق أو التعبير عن نفسها إلا أنها تستطيع أن تدرك من النظرات من حولها أنها ليست مثل أخيها الولد ومنذ أن تبدأ الطفلة تحبو أو تمشي تتربى على الحذر والخوف على أعضائها التناسلية .

وتنشأ البنات في معظم الأحيان في جو مليء بالتحذير والتخويف من كشف أو لمس أعضائهن التناسلية . وتشعر الأم (أو الأب) بالذعر حين تمتد يد الطفلة الصغيرة ابنة الخامسة من العمر لتستكشف أعضاءها فتنهرها بشدة وعنف وقد تعاقبها بالضرب أو التأنيب حتى لاتعود إلى ذلك مرة أخرى .

ولا يمكن أن ننكر أن الأطفال من الذكور أيضاً يعاملون بالمثل ازاء هذه التصرفات ، لكن نصيب البنت من هذا التخويف والتحذير هو أضعاف نصيب الولد بسبب القيود والمحظورات التي فرضها المجتمع على الاناث وبالذات على أعضائهن التناسلية ، وبالتالي يترسب في نفس البنت أكثر من الولد الخوف والكبت والعقد النفسية والجنسية التي تمنع نموها الطبيعي ونضوجها في مراحل العمر المختلفة .

ولا تدرى الأمهات والآباء انه من الطبيعى بل ومن الصحي أيضاً أن يلمس الأطفال ذكوراً واناثاً أعضاءهن التناسلية رغبة منهم في

استكشاف أنفسهم ، ولأنهم يشعرون أيضاً بشيء من اللذة أثناء هذا اللمس .

وجميع الناس بغير استثناء يشعرون برغبة جنسية تحتاج إلى اشباع . إنها رغبة طبيعية وصحية كالرغبة في الطعام يشعر بها جميع البشر في جميع مراحل العمر .

وكما تختلف الشهية إلى الطعام من شخص إلى شخص ، ومن ظرف إلى ظرف فإن الرغبة الجنسية أيضاً تختلف وتعبر عن نفسها بوسائل تختلف باختلاف الاشخاص . لكن وظيفتها الأساسية من أجل اشباع الاحتياج الطبيعى في الانسان وتأكيد وجوده واثراء حياته الجسمية والنفسية والفكرية والمحافظة على النوع .

وتتفاوت شدة الرغبة الجنسية في مراحل العمر المختلفة ولكنها لاتظهر فجأة (كما كان يعتقد الكثيرون) في مرحلة البلوغ ، فهي جزء هام من طبيعتنا وتكويننا ينمو بنمونا منذ لحظة الولادة حتى نهاية العمر . ويرى بعض العلماء أن الرغبة الجنسية لاتضعف بالتقدم في السن وانها تستمر بنشاطها المألوف إلى آخر العمر . ويرى بعض علماء الجنس انها أحياناً ماتقوى وتشتد في الكهولة والشيخوخة بدرجة ملحوظة أطلقوا عليها اسم « الشباب الثاني » وأرجعوا ذلك إلى أن الجهاز التناسلي أقدم الأجهزة وأقواها وظيفة وان زوال مشاغل الانسان من ناحية وزيادة نضجه الجنسي من ناحية أخرى كفيلان بزيادة قوته الجنسية ونشاطها رغم تقدم العمر .

وينكر هؤلاء العلماء وفي مقدمتهم العالم الانجليزي « كوبر » وجود شيء اسمه سن اليأس سواء للرجل أو للمرأة .

ومن الطبيعى أن الرغبة الجنسية تعبر عن نفسها أثناء الطفولة والمراهقة بطريقة مختلفة عنها في مرحلة النضوج . حينما يمص الوليد ثدي أمه فهو يشبع حاجته إلى الطعام ويملأ فراغاً يستشعر خلال ملئه باللذة . لكنه في نفس الوقت يبدأ يستمتع بأول تلامس مع شخص آخر غير نفسه ، وهذا إحساس له لذة .

وحين يفطم فإنه قد يمص أصبعه ليعيد إلى ذاكرته الاحساس السابق بالرضا . وقد يظل الفم عند الطفل لفترة بمثابة عضو الاستكشاف لكل مايحيط به من أشياء غريبة لم يعرفها من قبل .

ويلمس الاطفال بنين وبنات أعضاءهم التناسلية بطريقة طبيعية وصحية رغبة منهم في استكشاف أنفسهم ولأن هذا اللمس يمنحهم شيئاً من اللذة لاتسبب لهم أى ضرر بل انها ضرورية للنمو والتطور الطبيعيين لجسم الطفل ونفسه وعقله .

ويلعب الأطفال من الجنسين ما بين الخامسة والحادية عشرة ألعاباً بريئة لا ضرر منها ، احداها لعبة « الدكتور » حيث يقوم أحد الأطفال بدور الطبيب ويفحص جسم الطفل الآخر بكل وقار واهتمام واستطلاع كأى طبيب . وفي بعض الأحيان يتبادل الاطفال لمس أعضاء بعضهم البعض بطريقة مباشرة وقد يقلدون الاتصال الجنسي الذي يمارسه الكبار .

كل هذا لايحدث ضرراً للطفل وليس خطراً على أى طفل ذكراً كان أو أنثى لكن الضرر كله والخطر في ذلك التحذير والتخويف الذي يناله الطفل عن مثل هذه التصرفات الطبيعية .

أذكر انني وأنا طفلة صغيرة كنت أشعر بالذعر وترتجف أصابعي رعباً إذا ما لامست يدى بطريق الصدفة أعضائى الخارجية ، وكنت أخاف أحياناً من احتكاك ملابسى بهذه الأعضاء وأظن أن مثل هذا الاحتكاك كفيل بإحداث ضرر أو تلف بالغ بها قد يؤثر على حياتي كلها .

وكان هذا الخوف ينمو معي حتى بلغ قمته في اليوم الذي أدركت فيه أن هناك غشاء ما رقيقاً ، وانه موجود في مكان ما قرب السطح بين ساقي ، وأنني يجب ألا اقفز عالياً من فوق السلم وإلا أتعرض للتمزق فتصيبني أنا وجميع أفراد أسرتي كارثة بالغة .

وحينما تقدمت قليلاً من العمر تغير نوع الخوف الذي كان يجعلني أخشى القفز وأسير بخطوات بطيئة مريضة حذرة ، وأصبحت أخاف من الغرباء وأخشى الخروج بمفردي من البيت . فقد أدركت أن خطراً ما يكمن لي في ذلك العالم الخارجي وانني يجب ألا أكلم الغرباء وبالذات الرجال منهم وإلا فسوف يحدث لي شر مستطير .

واستطعت من حيث لا أدري أن أربط بين الرجال وبين ذلك الغشاء الرقيق القائم قرب السطح بين ساقي . وكنت كلما جلست بالصدفة بجوار رجل من غير أفراد أسرتي أضم فخذي بكل قوتي حتى لايتسرب الهواء الذي يتنفسه الرجل ويتسلل بين ساقي ويصيبني بالضرر .

لا أدري كيف بلغ بي الخوف إلى ذلك الحد لكني كنت سألت أمي ذات يوم بعد أن ولدت أختي الأصغر كيف ولماذا تلد الأمهات وردت علي أمي يومها قائلة أن الأم تلد حين تتزوج . وسألتها بالطبع

ككل الاطفال ولماذا تلد الأم حين تتزوج . وردت علي أمي قائلة لأنها تعيش مع الأب وتأكل معه وتتنفس الهواء الذي يتنفسه . وتصورت بسرعة بعقل الأطفال أن الهواء هو الذي يتجمع في بطن الأم ويصنع ذلك الجنين الذي يجعل بطنها تكبر ، لكنني تعجبت لهذه الفكرة ولم أصدقها فوجهت إلى أمي سؤالاً آخر قائلة : ولكن كيف يمكن للهواء أن يصنع الطفل ؟ وهنا لاحظت بوادر الغضب أو الضيق على وجه أمي وأبعدتني عنها بيدها وهي تقول في ضجر : لاتكفين عن الأسئلة ! اذهبي ورتبي السرائر !

★ ★ ★

ولا أظن أن أحداً يمكن أن يتصور (باستثناء النساء) ماتشعر به مثل هذه الطفلة حين تفتح عينيها ذات صباح فترى دماً أحمر يسيل من بين فخذيها . لازلت أذكر لون وجهي في المرآة ذلك الصباح القاتم . كان لونه أبيض وأصبحت شفتاي بيضاوتين تشوبهما زرقة ، وذراعاي ترتجفان وساقاي ترتعدان وقد تصورت أن الكارثة التي كنت أخشاها قد وقعت وأن رجلاً ما غريباً اقتحم حجرة نومي بالليل وسبب لي هذا الضرر . وقد كنت أتصور ذلك من قبل كثيراً وأتأكد قبل أن أنام من احكام غلق النافذة التي تطل على الشارع .

ومن الطريف انني كنت قد تلقيت في المدرسة في اليوم السابق لهذا اليوم الكئيب درساً في مرض البلهارسيا التي تصيب الفلاحين حين ينزلون بأرجلهم في القنوات المائية فتدخل البلهارسيا إلى اجسامهم وتصيبهم بحرقان أثناء التبول ودم أحمر في البول .

ولهذا ظننت ضمن ماظننت من أسباب لهذه الكارثة انني أصبت بمرض البلهارسيا اللعين وكنت اعتقد في ذلك الوقت ان تلك الفتحة الصغيرة الكائنة بين فخذي إنما هي فتحة البول فحسب .

وبسذاجة طفلة في العاشرة من عمرها تصورت أن هذا المرض قد يشفى وحده بعد لحظة وأخرى .

لكنه لم يتوقف ، بل كان يزيد ساعة بعد ساعة ، واضطررت في اليوم التالي أن اتغلب على الخوف والخزي اللذين كنت أشعر بهما وذهبت إلى أمي وطلبت منها أن تأخذني إلى طبيب .

وعجبت في ذلك اليوم كيف بدت أمي باردة هادئة ولم يفزعها مرض بنتها الخطير . ثم بدأت أعرف منها الحقيقة حين قالت لي أن هذا المرض يصيب كل البنات والنساء وانه سيتكرر مرة كل شهر لبضعة أيام ، وانني في اليوم الأخير يجب أن أتطهر من هذا الدم الفاسد بالاستحمام الجيد .

ورنت تلك الكلمات في أذني : مرض شهرى ! دم فاسد ! لابد من التطهير بالاستحمام الجيد ! وتصورت بخيال الطفلة أن فساد هذا الدم معناه النجاسة ، وأن النجاسة أمر معيب مزري ، وانني يجب أن أخفي مظاهر ذلك المرض عن جميع الأعين ، وبالذات عن أبي الذي كان يتصورني فتاة مثالية ويعجب بذكائي وتفوقي في المدرسة ، ورجوت أمي أن تكتم الأمر بيني وبينها .

ولزمت غرفتي أربعة أيام متتالية لا أملك الشجاعة على أن أواجه أبي أو أخي أو حتى الخادم الصغير وحينما أذهب إلى الحمام أتلفت

حولي خشية أن يلمحني أحد ، وقبل أن أخرج من الحمام اغسل بلاطه غسلاً جيداً وكأنني أطمس أثر جريمة مشينة ، ثم أغسل يدي وذراعي بالماء والصابون عشرات المرات لأزيل عني أى أثر لرائحة ذلك الدم الفاسد .

* * *

وبالإضافة إلى كل تلك المشاكل النفسية والجسمية التي تتعرض لها البنت الصغيرة في مرحلة البلوغ بسبب الجهل والتجهيل بأعضائها ورغباتها فانها تبدأ بدخولها سن المراهقة في التعرض لمزيد من المحظوات والقيود التي تقابلها بطبيعة الحال بمزيد من الخوف والانكماش والكبت .

ومن المعروف أن الرغبة الجنسية في البنين والبنات تزداد حدة عند البلوغ ، وأن البلوغ يصاحبه تغيرات عميقة في الانسان بسبب التغير في التوازن بين مختلف الغدد الصماء وزيادة كبيرة في إفراز الغدد التناسلية . ويصاحب هذا التغيير الجسمي والفسيولوجي تغيراً عميقاً في نفس الانسان وتفكيره ومشاعره .

ويقول علماء النفس أن الانسان في هذه الفترة بالذات يحتاج إلى أن تزول التحذيرات والضغوط من حوله ليأخذ فرصته في النمو والنضج والاستقلال بشخصيته عن الآخرين .

لكن الذي يحدث هو العكس فإن التحذيرات والضغوط تزداد من حول الانسان في فترة البلوغ عنها في أى فترة أخرى . ويتعرض الولد أيضاً للضغوط ، ولكن بنسبة أقل كثيراً من البنت ، كما أن الضغوط

التي يتعرض لها الولد تختلف عن الضغوط التي تتعرض لها البنت ، وكذلك تختلف نظرة المجتمع إلى بلوغ كل منهما وإلى مظاهر هذا البلوغ .

ففي الوقت الذي يعترف فيه المجتمع بالرغبة الجنسية عند الولد فإنه ينكرها على البنت . وبهذا يمكن القول أن بلوغ الولد ايجابي يؤكد به غريزته ورغبته في الجنس الآخر ، أما بلوغ البنت فمعناه نكران الجنس ونفيه . ويصبح من الطبيعي أن يغازل الولد البنت ويصبح من الانحراف أن تتقبل البنت غزل الولد ، ولا أقول أن تغازله كما يغازلها .

وتشعر البنت بالفروق الضخمة التى يضعها المجتمع بينها وبين أخيها الولد . أخوها يخرج ويلعب ويقفز ويتشقلب أما هي إذا ما جلست وانحسر الرداء عن سنتيمتر من فخذها فإن أمها ترشقها بنظرة مخلبية حادة لتخفي عورتها . وتشعر البنت وهي لم تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها أن كل شيء فيها عورة تستوجب التستر والإخفاء .

ومن الطبيعي أن تشعر البنت بعد كل ذلك بالعداء نحو جسمها وأعضائها التناسلية والجنس تربط بين كل هذه الأشياء والرجل فتشعر نحوه بالكراهية .

وقد تقاوم البنت وتصارع فترة أو فترات ضد المصير الذي يقوده اليها المجتمع بيد حديدية باردة .

ومن مذكرات طفلة في العاشرة من عمرها كتبت : « لم أكن أهرب إلى عالمي الصغير وكتبي المصورة وأقلامي الملونة حتي تجرجرني مامي إلى المطبخ وهي تقول : مصيرك إلى الزواج . يجب أن تتعلمي الطبخ ، مصيرك إلى الزواج ! الزواج ! تلك الكلمة البغيضة التي كانت ترددها أمي كل يوم حتى كرهتها ، ولم أكن اسمعها حتى أتمثل أمامى رجلا له بطن كبير في داخله مائدة طعام . ارتبطت في ذهني رائحة المطبخ برائحة الزوج . وكرهت اسم الزوج ، وكرهت رائحة الأكل » .

التربية والكبت

إن الانسان مهما ورث من صفات فإن الصفات التي يكتسبها من البيئة المحيطة به وعن طريق التربية هي التي تكون صفات شخصيته وشكلها النهائي ، فالانسان يعيش داخل مجتمع يتأثر به ويؤثر فيه ، والحياة هى التفاعل المستمر بين الانسان ومجتمعه .

وبهذا يكون التبادل أساس حياة الانسان داخل المجتمع من ولادته حتى موته . ويتميز الانسان عن سائر الحيوانات بقدرته على السيطرة على شعوره والاختيار . هذه القدرة تنمو في مراحل العمر المختلفة . فالطفل في أول مراحل عمره لايستطيع الاعتماد على نفسه ثم يتعلم كيف يعتمد على نفسه . أى أن الطفل يفقد بالتدريج سلبيته واحتياجه للآخرين ويكتسب الايجابية والقدرة على الاختيار وحرية الفعل وهذا هو معنى النمو .

والنمو لايعني نمو الجسم فحسب . فكما ينمو جسم الطفل ينمو عقله وتنمو نفسه . إن النمو النفسي والعقلي هو حركة نحو مزيد من استقلال الشخصية والقدرة على الاختيار والحرية الشخصية والمسئولية . هذا النمو ضرورة وأساسي ليحرر الانسان من ارادات الغير ومحاكاتهم .

لكن المجتمع بنظمه وقوانينه ومؤثراته وضغوطه يكبت المرأة فيعوق هذا الكبت نموها الفكري والنفسي ، ويحول دون تحررها من السلبية والاعتماد على الآخرين ، وتظل كالطفل في مراحله الأولى من النمو عاجزاً عن الاستقلال والايجابية وحرية الفعل . لكنها تختلف عن الطفل في أن جسمها لايكون طفلا صغيراً وإنما يكون قد أصبح جسداً كبيراً ناضجاً .

ولعل هذا هو السبب في أننا نرى نساء كبيرات ناضجات في أجسامهن أما نفوسهن وعقولهن فلا تزال في مرحلة متخلفة من مراحل النمو ، وهذا التخلف هو أهم سبب وراء معظم الانحرافات والمشاكل الاجتماعية أو النفسية أو الجنسية .

إن عدم النضج هو السبب الرئيسي وراء معظم هذه المشاكل ، عدم نضج المرأة وكذلك عدم نضج الرجل . فالرجل وإن كان أكثر حظاً من المرأة في الحرية وفي فرص النضج إلا انه يتعرض أيضاً لضغوط اجتماعية تعرقل نضجه النفسي والعقلي ، كما أن التفرقة الكبيرة بين الرجل والمرأة في المجتمع والضغوط الشديدة على المرأة تزيد من احساس الرجل بإيجابيته فإذا بها تتحول إلى مبالغة في السيطرة وميل إلى الأنانية والسادية (الرغبة في الإيلام) ، وتزيد أيضاً من إحساس المرأة بسلبيتها لتصبح مبالغة في الخضوع والماسوشية (الرغبة في استشعار الألم) .

إن سلبية المرأة ليست صفة طبيعية في المرأة ولكنها صفة غير طبيعية نتجت عن ضغوط المجتمع وكبته لنموها ، وكذلك أيضاً جميع الصفات الأخرى التي ألصقها المجتمع بالمرأة والأنوثة وكلها صفات غير طبيعية دخيلة على طبيعة المرأة السوية .

فالبنت تولد طبيعية ثم تتعلم لحظة ولادتها كيف تصبح أنثى وكذلك الولد يتعلم كيف يصبح ذكراً . وكما قالت « مرجريت ميد » أن الفتاة تتعلم أن تجلس وتضم ساقيها وتحافظ على بكارتها وتخجل من جسمها ثم تنتظر دورها السلبي في الحياة كامرأة . أما الولد فيحرك ساقيه بحرية ويفخر بجسده ويدخل إلى عالم الرجال بإيجابية . ولو أن البنت تلقت التربية التي يتلقاها الولد لما كانت هناك تلك الفروق بين الرجل وبين المرأة أو بين الرجولة والأنوثة .

وقالت سيمون دي بوفوار أن صفات الأنوثة نتاج صناعي لوضع المرأة السفلي في المجتمع . وكتب كينيث ووكر في كتابه الجنس والمجتمع ان احساس الذكر بذكورته والأنثى بأنوثتها ، ومعنى هذا الإحساس ، وفرص اشباع الرغبة الجنسية ، والظروف التي يحدث فيها هذا الإشباع ، كل هذا يخضع للمجتمع من حولهما وما فيه من تقاليد وضغوط في البيت أو في المدرسة أكثر مما يخضع لصفاتهما الموروثة من أبيهما وأمهما .

وقد أهمل علماء النفس التقليديون وعلى رأسهم فرويد المجتمع وأثره في تشكيل حياة الانسان الجنسية ، وكانوا يهتمون بداخل الانسان أكثر من اهتمامهم بالبيئة الخارجية ولهذا فقدوا الكثير ، وثبت قصور نظرية فرويد التي تقول بأن الذي يحكم سلوكنا الواعي إنما هي دوافع العقل الباطن ، فقد اتضح أن كل تغير في شكل أو مضمون وعينا إنما هو رد فعل أو تفاعل لتغير في البيئة من حولنا ، وأن الصراعات التي يعاني منها الطفل والتي أرجعها فرويد إلى الاحباط الجنسي والغيرة ليست إلا نتاجاً لتفاعل الانسان مع القوى والضغوط الاجتماعية التي تفرض عليه .

وقد أخطأ فرويد وأتباعه في فهمهم لنفس المرأة وأحاسيسها ورغباتها . ويرجع هذا الخطأ لأنهم لم يستطيعوا ادراك القوى الاجتماعية والضغوط وأثرها في نفس المرأة ، ولأنهم أيضاً كانوا رجالاً ولم يكونوا نساء .

★ ★ ★

وتواجه البنت منذ طفولتها تناقض المجتمع ، ففي الوقت الذي تحذر فيه من الرجال وتخوف من الجنس وتفرض عليها العفة فهي تشجع على أن تكون أداة جنس وتعلم كيف تكون جسداً فقط وكيف تجعل هذا الجسد وتزينه لتجذب الرجل .

وينعكس هذا التناقض على شخصية المرأة بتناقض آخر ، فهي تريد الرجل ولا تريده . وهي تقول لا وتعني بها نعم . ويظن المجتمع أن هذه هي طبيعة المرأة وينسى انه هو الذي فرض عليها هذا التناقض .

وتسبب التربية التي تتلقاها البنت سواء في البيت أو المجتمع كثيراً من المشاكل والعقد النفسية . فالبنت تتدرب منذ الصغر على أن تنشغل بجسمها وملابسها وزينتها طول الوقت ولا تجد وقتاً أو اهتماماً لتقرأ أو تنمي قدراتها العقلية والنفسية . وتتحمل الفتاة متاعب التجميل وآلامه وتتدرب على أن تخفي طبيعتها وحقيقتها .

وكم تصاب البنات بالقلق والأمراض النفسية المختلفة بسبب حرصهن الشديد على استيفاء مقاييس الجمال الموضوعة . وتشعر البنت أن مستقبلها في الحياة يتحدد حسب طول أنفها واتساع عينيها

وامتلاء شفتيها . وحينما تجد البنت أن أنفها أطول أو أقصر من اللازم فإنها قد تعيش في قلق دائم ، وقد تشعر بالخجل من أنفها وتحاول أن تخفيه بيدها من حين لآخر بحركة لا ارادية . وقد تتصور الفتاة خطأ انها يجب أن تخفي رائحة جسمها الطبيعية أو أن هذه الرائحة ليست عطرة كما يجب فإذا بها تبلل نفسها بالعطر عدة مرات كل يوم . وهناك من ترى أن اسنانها بارزة أو أكبر مما يجب فتمنع نفسها من الابتسام أو الضحك ، وإذا حدث وضحكت فهي تزم شفتيها أو تضع يدها على فمها .

ولا يمكن لأحد أن يتصور كم تشتغل البنات بتوافه الأمور ، وكم تصبح بضع ملليمترات تنقصها الرموش عن طولها المعتاد مشكلة حادة في حياة فتاة من الفتيات ، وكم من فتاة ترعبها بضع قطرات مطر لأنها تفسد تسريحة شعرها ، وكم من فتاة تفسد مشيتها وقوامها الطبيعي بالتأرجح على كعب عال رفيع ، وكم من امرأة لاتستطيع أن تواجه الناس بغير أن تضع على وجهها المساحيق والظلال والخطوط .

وهناك من الفتيات بطبيعة الحال من ينجو من مثل هذا القلق والمشاكل النفسية لمطابقة مقاييس الجمال عليهن لكنهن يعشن أسيرات لهذا المفهوم الضيق للجمال ، أسيرات لفكرة أن مستقبلهن هو الرجل والزواج ، هذا في الوقت الذي يعد فيه اخوانهن الذكور للعمل في الحياة العامة والمشاركة في بناء المجتمع .

وتقلل هذه التربية من طموح البنت وتعتقد أن سنوات الدراسة أو العمل بعد التخرج ليست إلا فترة انتظار تنتهي بالعثور على الزوج .

وينتج عن هذه التربية أن يصبح الزوج هو كل حياة المرأة أما الزوجة فليست إلا جزءاً من حياة الرجل . وحيث أن المرأة تربت منذ طفولتها على أن تنكر الجنس وتكبت رغباته فهي تعجز بطبيعة الحال عن أداء دورها الجنسي المفروض مع الزوج وتتهم بالبرود ويصبح من حق زوجها أن يطلقها ، أو أن يبقيها خادمة بالبيت وينطلق هو مبيحاً لنفسه كل من يستطيع من النساء .

★ ★ ★

إن الطبيعة لم تفرق بين الرجل والمرأة فلكل منهما رغبة جنسية وطاقة لابد أن تصرف في اتجاهها الصحيح . ومن خصائص الطاقة انها تولد ثم تصرف ثم تولد ثم تصرف وهكذا تستمر الطاقة أو القوة التي تحرك الانسان طالما هو يعيش .

وإذا ما تعرض الانسان في حياته لقوى خارجية تكبت هذه الطاقة فإنها لاتفقد أو تكبت بمعنى الكبت ولكنها تنحرف وتصرف في اتجاه آخر غير اتجاهها السليم . ولهذا تنحرف طاقة المرأة الجنسية بسبب ضغوط المجتمع وتسبب للنساء الكثير من الأمراض النفسية والعصبية . وما هذه الآلام الشديدة التي تصاب بها النساء أثناء الطمث أو الولادة إلا بسبب انحراف هذه الطاقة عن مسارها الطبيعي لتحطم نفس المرأة .

إن نفسية المرأة تصبح مشوهة ومريضة بسبب أثر الطاقة المحطم على نفسها . ومنذ الولادة حتى الشيخوخة تنحرف طاقة المرأة الجنسية . وتتعلم البنت منذ طفولتها أن تنكر الجنس وتقتل رغبة البحث والاستطلاع عندها سواء في علاقاتها الجنسية أو علاقاتها غير

الجنسية فإذا ما جاء الوقت الذي يجب أن تحس فيه الجنس عجزت ، لأن القالب الذي وضعت فيه أصبح من القوة بحيث انه تغلب على رغبتها الطبيعية واستطلاعها .

ويريد المجتمع بضغوطه على المرأة أن تصبح بغير رغبات جنسية أو بغير جنس . ويأتي علماء النفس ليضعوا النظريات التي تفسر مايقع في المجتمع وتبرره ، فإذا بفرويد يقول أن الأنثى ذكر بغير عضو تناسل ، أو ان الأنوثة هي ذكورة بغير رغبة جنسية أو بغير « الليبدو » .

ويأتي علماء الأخلاق والقانون ليضعوا القيم والقوانين التي تفرض على المرأة سلوكاً يتفق مع نظرة المجتمع اليها والدور الذي وضع لها .

أما أطباء النفس فيقومون بدورهم الفعال في تنفيذ قيم المجتمع وتحطيم البقية الباقية من شخصية المرأة باسم التكيف الاجتماعي .

★ ★ ★

إن التربية التي يتلقاها الطفل في مراحل عمره المختلفة تعرقل نموه الطبيعي . فالطفل لايترك لحظة ليواجه نفسه بنفسه أو يتخذ قراراً مستقلاً عن إرادة الكبار الذين يربونه . وكما قال « دافيد كوير » أن التربية الحديثة تمنح الطفل الأدب والطاعة وتفقده نفسه وشخصيته . وعبر « كينيث ووكر » عن نفس هذا المعنى حين قال : « إننا نتعلم من المهد إلى اللحد أن نستبدل قيمة أنفسنا بالقبول الاجتماعي وتكامل شخصياتنا وأرواحنا بالتكيف الاخلاقي » . وهكذا فان ثمن الحصول على الأمن هو فقدان النفس ، وكم يكون هذا الثمن باهظاً لأنه ثمن الحياة ذاتها .

والتربية التي يتلقاها الطفل في مجتمعنا الحديث هي سلسلة متصلة من الممنوعات والعيب والحرام والذي لايصح . ويكبت الطفل رغباته ويفرغ نفسه من نفسه ويملؤها برغبات الغير . ويتضح من ذلك أن هذه التربية عملية قتل بطيئة لروح الانسان ولايبقى من الانسان بعد ذلك إلا غلافه الجسدى الخارجي جامداً فاقداً للحياة كالزنبرك يحركه الآخرون .

ولاشك أن نصيب البنت من هذه التربية أكبر بكثير من نصيب الولد وأن نصيبها من الكبت أضعاف نصيبه . ولهذا فان انسحاق نفسها وروحها أشد وأفدح .

ففي الوقت الذي يسمح فيه للولد بالخروج إلى الشارع ومخالطة أصدقائه تعزل البنت في البيت بفكرة حمايتها من خطر العالم الخارجي . وتشعر البنت بالخوف من الغرباء وتحس انها قد تكون فريسة في أى وقت ، وتنكمش داخل البيت حيث الأمان ، وهي لاتدري أن هذا الأمان إنما هو الخطر بعينه لأنه يعزلها عن المجتمع ويجتث جذورها يوماً بعد يوم من الحياة وخبراتها فتموت وهي على قيد الحياة .

وهناك بعض الفتيات أو الكثيرات منهن يصارعن ضد هذا القتل البطيء .

وقد كنت في طفولتي احدى هؤلاء البنات اللائي يصارعن ويقاومن . كنت أرفض الخدمة بالبيت والمساعدة في المطبخ وأصر على الذهاب إلى المدرسة . كنت أرفض أن يصبح شعري طويلاً مقيداً في ضفائر وأشرطة . لم أكن أفهم لماذا تهتم أمي بملابسي

وفساتيني وتشتري لي منها الكثير في الوقت الذي ترفض أن تشتري لي كتاباً أقرأه . كنت أتفوق دائماً في الدراسة عن أخي فلايهنئني أحد ولا يغتبط أحد وحينما أفشل مرة واحدة في اتقان الطبخ يؤنبني الجميع .

وتختلف البنات في صراعهن ضد الفروق المفتعلة بينهن وبين البنين باختلاف ظروفهن وشخصياتهن . هناك بنت تصارع حتى مرحلة البلوغ فإذا بحادث الطمث المفاجيء والذي لم تُعد له يصيبها بالضربة القاضية فتستسلم لمصيرها وتعتقد أن الطبيعة هي التي حكمت عليها بهذا العقاب كما تسمع من حولها . وبنت أخرى أكثر طموحاً وثقة بنفسها تصر على مواصلة الصراع إلى الحد الذي تنكر فيه جسدها وتلغي رغباته وتنشد التفوق في الحياة متحدية الرجال . ومن النادر أن نجد تلك البنت التى تستطيع أن تعيش حياتها الطبيعية كجسم وعقل ونفس وأن تمارس رغبات جسمها ونفسها وعقلها دون أن يضطرها المجتمع إلى إلغاء أحدها على حساب الآخر .

إن المجتمع لايستطيع أن يعترف أن المرأة يمكن أن تتفوق وتنبغ دون أن تتحول إلى رجل . فالتفوق والنبوغ في نظر المجتمع صفة الرجل فحسب ، فإذا ما اثبتت امرأة ما نبوغها بما لايدع مجالاً للشك اعترف المجتمع بنبوغها وسحب منها شخصيتها كامرأة وضمها إلى صف الرجال .

وكم طاردتني كلمة « رجل » كلما تفوقت في دراستي أو عملي . إذا حافظت على كلمتي ووفيت وعدي قالوا « رجل » كأنما المرأة ليست لها كلمة وليس من المفروض أن تفي بوعدها . إذا سرت

بخطوات سريعة وحذاء منخفض قالوا « رجل » وكأن المرأة لابد أن تمشي ببطء وكسل وتراخ وتتأرجح على كعب عال . إذا مارست الرياضة واكتسبت عضلات جسمي قوة قالوا « رجل » وكأن المرأة لابد أن تكون ضعيفة العضلات هزيلة الجسم ، تسقطها على الأرض نفخة رجل وتنكسر عظامها تحت قبضته القوية .

وهذا المفهوم الأخير يكشف عن العلاقة السادية الماسوشية التى تلون معظم علاقات الرجال بالنساء . فالرجل هو السادي الذي يقتحم ويغتصب ويكسر ، والمرأة هي الماسوشية التي تقع عليها الاقتحام والاغتصاب والتكسير ، الرجل هو الفاعل دائماً والمرأة هي المفعول به . الرجل هو الايجابي والمرأة هي السلبية .

المجتمع يفرض على المرأة أن تكون السلبية وأن تكون ماسوشية ثم يسمي السلبية والماسوشية طبيعة المرأة . ويأتي فرويد ليؤكد هذا المفهوم علمياً ويعرف الرجولة بالسادية والأنوثة بالماسوشية .

* * *

حينما بلغت السادسة عشرة من عمري وجدت نفسي في مدرسة داخلية . عرفت أن أهلي يخشون علي من ركوب المواصلات العامة والاختلاط بالبنين أو التعرض لمعاكساتهم أو اغراءاتهم . وكنت قد فهمت بحكم التربية وقراءة كتب المطالعة والأخلاق وكل ماحولي من تعليقات ونظرات وتصرفات ان الاتصال بالشبان أكبر عيب وأكبر خطر يمكن أن يطيح بمستقبلي وسمعتي كفتاة على خلق .

لكني كنت أحس أن داخلي طاقة ضخمة تجذبني نحو الجنس الآخر . وكنت أسمع الأغاني الملتهبة بالغرام كل يوم في الراديو ونداءات وتأوهات المطربة وهي تنادي على حبيبها فيزيد تأججي .

وكنت أشعر بالذنب وتأنيب الضمير يراودني وأنا نائمة أحلم وأجد نفسي بين ذراعي رجل مجهول . وكان يزيد من شعوري بالذنب انني كنت أجد في ذلك متعة شديدة .

ولم أكن أفهم نفسي تماماً . كنت متناقضة جداً في تصرفاتي . ففي الوقت الذي التهب فيه من الأعماق يبدو مظهري بارداً جامداً . لم أكن أتظاهر بالبرود . كنت في حقيقة الأمر لا أحب الشبان بل كنت أكرههم . أما هذا الشاب المجهول الذي كان يأتيني في الأحلام فقد كان مختلفاً . لم أكن أعرف وجه الخلاف فقد كان يشبههم تماماً . لكني كنت أعتقد أنه رجل آخر غير كل الرجال ، وانه الوحيد الذي خلق لي . وقد ضيعت من عمري سنين كثيرة أبحث عن هذا الرجل ثم اكتشفت بعد فوات الأوان انه شخص وهمي لا وجود له وأنني أنا التي صنعته بخيالي الرومانتيكي وأن الرجل الحقيقي الطبيعي أفضل منه بكثير .

إن الرومانتيكية مرض يصيب البنات بسبب ذلك التناقض الحاد الذى يعشن فيه ، وبسبب ذلك الكبت الذي يفرض على غرائزهن في الوقت الذي يطفح المجتمع بالأغاني الرومانتيكية المريضة والفن والأدب الرومانتيكي السقيم الذي ساد ولايزال يسود في قرننا العشرين .

إن أكبر مظهر من مظاهر مرض الرومانتيكية هي أن الفتاة تفصل بين جسد الرجل والرجل ذاته . انه نوع من الشيزوفرينيا أو الانفصام تلحقه الفتاة بالرجل لتهرب من الشعور بالإثم . فهي بحكم التربية والتقاليد السائدة تربط بين الإثم والاتصال بجسد الرجل ويكون الرجل الوحيد الذي يناسب كبتها هو أن تطلق العنان لخيالها وتصنع رجلاً وهمياً .

وحينما تكبر الفتاة تصاب بخيبة أمل كبيرة إذ تجد الحقيقة دائماً أقل من الخيال ، ويصدمها أن تجد للرجل جسداً وعضو تناسل ولحماً ودماً ، وانه يبصق ، ويدخل دورة المياه ويبول كسائر البشر العاديين ، ولاتصيبها قبلة الرجل الحقيقية بتلك الرعشة التي كانت تحدث لها مع فارس الأحلام . ويمكننا أن نتصور مدى التعاسة التي تعيشها الفتاة في أول حياتها الزوجية وقد تصيبها خيبة الأمل هذه بالبرود الدائم ، وقد تستطيع إذا حظيت برجل ناضج واع (وهذا نادر جداً) أن تشفى من مرض الرومانتيكية وأن تبدأ تستمتع بحياتها الطبيعية بعد سنوات طويلة .

وقد كتبت جيرمان جرير تصف هذه الحالة في كتابها « إخصاء الأنثى » قالت : وكمعظم البنات كنت أحلم بفارس الأحلام الذي سيحملني على جواده الأبيض ويوقظني بتلك القبلة السحرية التي قرأت عنها في روايات الأدب الشهيرة . ولكن حينما جربت أول قبلة والثانية وغيرهما من بعد ولم أحصل على النتائج التى كنت أتوقعها شعرت بخيبة أمل كبيرة ، وإنه لم يكن إلا بعد سنوات وبعد أن

جربت الوصول إلى قمة اللذة في الجنس (الأورجازم) حين عرفت فجأة معنى تلك القبلة السحرية التي قرأت عنها » .

* * *

إن الطاقة الجنسية في الانسان رجلاً كان أو امرأة طاقة ضخمة جبارة وليس هناك من تعبير عن نقص الانسان ورغبته في الكمال أبلغ من الرغبة الجنسية . الجو الجنسي ينشأ عن رغبة الجسم والعقل والنفس في البحث عن شيء يلبي احتياجاتها جميعاً . هذه الغريزة القوية قادرة على تحريك كل ملكات الانسان في الخيال والابتكار . وكما قال نيتشه أن الطاقة الجنسية في الانسان تمتد بطبيعتها إلى أعلى قمة في نفس الانسان وروحه وكيانه .

وحيث أن الطاقة إذا كبتت لا تضيع أو تفقد ، وإنما تنحرف عن مسارها الطبيعي إلى مسار آخر ، لهذا تنحرف الطاقة الجنسية المكبوتة عند البنات إلى طريق آخر غير الرجل .

ولقد بدأ كثير من العلماء أخيراً الاعتراف بخطأ احصاءات كينزي التي كانت تقول أن ٩٣٪ من البنين يمارسون العادة السرية . وأن ٦٢٪ فقط من البنات يمارسنها مرة واحدة على الأقل . كذلك اتضح خطأ الكثير من المفاهيم العلمية التي كانت سائدة عن العادة السرية سواء في الذكور أو الاناث . ان كل انسان ذكراً كان أو أنثى يمر بمرحلة من مراحل عمره حين يجد لذة طبيعية وصحية حين يمسك أعضاءه التناسلية ويداعبها حتى يصل إلى قمة اللذة . وهكذا يمكن القول بأن غالبية البنين والبنات يمارسون العادة السرية في فترة من فترات عمرهم ، ثم يكفون عنها بانتقالهم إلى مرحلة أكثر نضجاً

ويبحثون عن هذه اللذة التي خبروها مع الجنس الآخر .

وبعض علماء النفس يعتقدون أن ممارسة البنت أو الولد للعادة السرية في هذه الفترة المحدودة عمل صحي للنضج واكتشاف لذة الجنس وخبرتها . فقد اتضح لهم أن المعلومات النظرية عن اللذة الجنسية تختلف عن التطبيق .

وفي مقابلة لي مع الدكتور ميسجيلب وهو استاذ بكلية طب برلين ورئيس تحرير مجلة « صحتك » في المانيا الشرقية ومسئول عن الرد على بريد القراء والقارئات بالمجلة قال لي : حينما ترسل إليَّ فتاة رسالة تقول فيها انها تمارس العادة السرية وانها تشعر بالذنب والخوف أرد عليها بأنه لا داعي على الاطلاق للشعور بالذنب أو الخوف بل بالعكس أن ممارسة العادة السرية لفترة محدودة يفيد الفتاة ويجعلها تنضج بسرعة وتدرك معنى اللذة الجنسية ، ولا تجد صعوبة في الوصول إلى قمة اللذة مع الرجل الذي تختاره . وقال أيضاً أن من أسباب عجز أغلب النساء عن الوصول إلى قمة اللذة مع رجالهن هو أن هؤلاء النساء لم يمررن بجميع مراحل النضج الجنسي وإحدى هذه المراحل هي مرحلة العادة السرية ، وذلك بسبب ما أحيطت به هذه العادة من معلومات خاطئة ومفاهيم مشوهة دفعت الكثيرين من البنات (والبنين أيضاً) إلى الإحجام عنها ، ويكفي أنها سميت باسم العادة السرية لتصبح ضمن الإنحرافات والأمراض الجنسية . إن هذه المرحلة تصبح صحية في فترة المراهقة حين لايصاحبها احساس بالذنب أو الخوف ، لأنها تساعد البنت أو الولد على اكتشاف لذة الجنس واضعاف التوتر الجنسي .

على أن ذلك لايعني كما يقول الدكتور ميسجيلب أن تفرط البنت في ممارسة هذه العادة لأن هذا الإفراط له جوانب سلبية كثيرة احدها أن الفتاة لاتنتقل بسرعة إلى مرحلة النضج التالية تمارس الجنس مع الرجل ، كأنها حين تنتقل إلى هذه المرحلة (ويكون ذلك متأخراً) تشعر بأن علاقتها بالرجل لاترضيها بالقدر الذى تعودته من خلال العادة السرية . ولاشك أن المجتمعات التي تفرض الضغوط على الفتاة والعزل بينها وبين الرجل تشجع بناتها على الإفراط في العادة السرية وبالتالي يحرمن من النضج الطبيعي وتصاب معظمهن من بعد في حياتهن الزوجية بالبرود أو العجز الجنسي .

★ ★ ★

اكتشفت حين عدت إلى قراءة بعض مذكراتي القديمة التي كتبتها وأنا تلميذة بمدرسة حلوان الثانوية الداخلية انني طوال الخمس سنوات من عمري في هذه المدرسة كنت أعيش حباً ضخماً جارفاً ملك على كل مشاعرى . ولم يكن الحبيب سوى « مس سنية » . مدرسة اللغة الانكليزية . كنت أبكي بكاء مراً طول الليل إذا ما قابلتني في الفناء ولم تبتسم لي أو تقول لي صباح الخير . وكنت أقفز في الهواء فرحاً حتي يصطدم رأسي بالسقف أو يكاد إذا ما عاملتني مرة أثناء الحصة وجعلتني أول من يقرأ الدرس . وفي إحدى الليالي سهرت حتي الفجر اكتب لها رسالة عتاب طويلة لأني تغيبت عن الحصة يوماً فلم تسأل عن سبب غيابي .

ولم أكن أنا البنت الوحيدة التي تحب مدرستها كانت بنات الفصل جميعاً لها ولهن في حب المدرسات كل حسب ذوقها واختيارها . وكم

من مشاجرات حدثت بين البنات بسبب التنافس على حب مدرسة واحدة .

ويقول علماء النفس أن مثل هذ الانجذاب والتعلق الذي يحدث بين أفراد الجنس الواحد سواء بين البنين والبنات طبيعي في مرحلة من مراحل نمو الانسان ونضجه الجنسي وانه لايعد شذوذاً جنسياً .

ولكن الشذوذ هو أن يظل الانسان في هذه المرحلة ولاينتقل إلى المرحلة التالية من النضج حيث ينجذب إلى الجنس الآخر ويجد معه المتعة التي ينشدها .

لكن ضغوط المجتمع وتحريمه اتصال الفتاة بالجنس الآخر يشجعها على أن تتجمد مشاعرها عند هذه المرحلة وتصبح علاقتها ببنات جنسها ليستَ تلك العلاقة العاطفية المؤقتة وإنما علاقة عضوية جنسية تستبدل بها الرجل بالمرأة وتشعر بلذة الجنس مع النساء فحسب .

ولأن المرأة أكثر تعرضاً لضغوط المجتمع من الرجل فهي أكثر تعرضاً للاصابة بالشذوذ الجنسي . ولكن الاحصاءات والبحوث العلمية لم تثبت ذلك لأن معظم هذه البحوث تكرس لخدمة الرجل ودراسة الانحرافات أو العجز الذي يمكن أن يحدث له . أما المرأة فقلما يتحمس العلماء لدراسة أسباب الانحرافات أو العجز أو البرود الجنسى الذي تتعرض له كثيرا .

والسبب في ذلك واضح . فإن أهمية المرأة في نظر المجتمع ترتكز على انجابها للأطفال ، وحيث أن برود المرأة الجنسي لايحول دون انجابها للأطفال فإن المجتمع لايهتم ببرودها ويقابله ببرود أشد .

الانجاب هو كل مايهم المجتمع لأثره المباشر على مصلحة المجتمع الاقتصادية . وأوضح دليل على ذلك هو مايحدث في حالتي تحديد النسل أو اطلاقه بدون تحديد . فحينما يعاني المجتمع من نقص في السكان وبالتالي في الأيدي العاملة اللازمة للإنتاج فإنه يكرس جهوده لاكتشاف وسائل زيادة الاخصاب وعلاج أسباب العقم عند النساء . فإذا مازادت الأيدي العاملة عن حاجة الانتاج وهدد المجتمع اقتصادياً زيادة السكان فإنه يكرس جهوده لاكتشاف وسائل لمنع الحمل وتعقيم النساء .

أما أن معظم النساء لايشعرن في حياتهن الزوجية الطويلة باللذة الجنسية الكاملة فهذا لايهم المجتمع في شيء .

وقد استردت المرأة بعض حقوقها في البلاد المتقدمة ولهذا أصبحت البحوث في السنوات الأخيرة تتجه لدراسة أسباب البرود الجنسي عند المرأة أو الشذوذ الجنسي أو غيرهما من الانحرافات التي تتعرض لها المرأة . ولعل هذا يفسر لنا سبب ازدياد حالات الشذوذ الجنسي بين النساء . إذ الحقيقة أن هذه الزيادة ليست بسبب الحرية التي نالتها المرأة ولكنها بسبب ازدياد البحوث التي تهتم بالنساء ، فالحرية التي تستردها المرأة شيئاً فشيئاً لاشك تساهم في علاج الكبت الذي تعاني منه المرأة وتعالج معه كل أنواع الأمراض والانحرافات ومنها الشذوذ الجنسي .

وقد كان العلماء في بحوثهم عن أسباب الشذوذ الجنسي عند الرجال يهملون المجتمع وضغوطه وينشغلون بالأسباب البيولوجية للشذوذ . ولعل آخر اكتشافاتهم في هذا المضمار هو أن انخفاض نسبة

هرمون الذكورة في الدم (بسبب كسل ما في خلايا « لايدرك » الموجودة بالخصية) يؤثر على مركز في المخ مسئول عن العلاقات الجنسية ، فيصبح الرجل أكثر ميلاً للرجال .

وحيث انه لايوجد شيء في الانسان يمكن تفسيره بيولوجياً فحسب لذلك فإن الفصل في أي بحث بين الأمور البيولوجية والأمور الاجتماعية تنتهي به إلى أن يكون بحثاً فردياً . والأفضل للعلماء اقتصاداً للجهد والوقت والمال أن يبحثوا داخل المجتمع عن أسباب الشذوذ أكثر من بحثهم داخل خلايا الانسان ، فالجنس ليس وظيفة لا إرادية مستقلة بذاتها عن البيئة من حولها ، والشذوذ الجنسي كالضعف الجنسي ظاهرة من ظواهر توقف نمو الشخصية بسبب ضغوط المجتمع .

وقد أثبتت أبحاث وتقارير أزوالد شوارز أن حالات الشذوذ الجنسي بين الذكور غير موجودة تقريباً في المدارس المختلطة التي تجمع بين الجنسين ، كما اتضح أيضاً زيادة حالات الشذوذ داخل السجون والمعتقلات وبين الجنود وفي المدارس الداخلية وغير ذلك من الظروف التي يفصل فيها بين الرجال والنساء .

وهذا شيء طبيعي لا غرابة فيه ، فالطاقة الجنسية عند الانسان قوية ، لاتفقد ولاتضيع، ولابد لها من طريق تصرف منه لتعود وتولد من جديد . فإذا وجدت الطريق الطبيعي مسدوداً انحرفت إلى طريق آخر . إذا لم يجد الانسان الجنس الآخر اتجه إلى نفس الجنس ، وإذا لم يجد نفس الجنس في حالة الانعزال عن الناس استعاض بنفسه عن الآخرين ومارس العادة السرية . وفي حالات الحرمان القصوى قد

يلجأ الانسان إلى الحيوانات وبالذات في الريف حين يسكن الحيوان مع الانسان بيتاً واحداً ، وفي حالة الأرامل العجائز حين لاتجد المرأة إلا كلبها العزيز الوفي .

★ ★ ★

إن الانسان مهما ورث من صفات فإن الصفات التي يكتسبها من البيئة المحيطة به وعن طريق التربية هي التى تكون صفات شخصيته وشكلها النهائي . ولهذا لابد لنا أن ندرك أهمية التربية الصحيحة منذ الصغر . وقد أثبت علم الوراثة الحديث أن الصفات المكتسبة عن طريق التربية تورث من جيل إلى جيل ، وأن الإنسان عن طريق التربية منذ الصغر يمكن أن يكتسب صفات جميلة نفسية وجسمية واجتماعية وأن يورثها لأطفاله . وكما قال عالم الوراثة الروسي ميتشورين أننا يمكننا التدخل في تحسين نوع الإنسان وموروثاته ونصنع أجيالاً أفضل دائماً . فلا ينبغي لنا أن ننتظر الحسنات من الطبيعة بل علينا ننتزعها انتزاعاً وندفع الإنسان إلى التغير إلى الأفضل .

الطبيعة بريئة

يختلط على كثير من الناس الأسباب التي من أجلها يضع المجتمع المرأة في مرتبة أقل من الرجل ، ويفرض عليها قيوداً وضغوطاً لايفرضها على الرجل ، ويحدد لها دوراً معيناً في الحياة يرتكز أساساً على الخدمة بالبيت ورعاية الأطفال .

وقليل جداً من الناس من يدرك الأسباب الحقيقية وراء تلك الفروق الضخمة التي يضعها المجتمع بين الرجل والمرأة ويدعي أن الطبيعة هي التي وضعتها .

لكن الحقائق العلمية تثبت أن هذه الفروق بين الرجل والمرأة فروق صناعية من صنع المجتمع بدليل أنها تتغير من مجتمع إلى مجتمع ومن عهد إلى عهد ومن نظام إلى نظام . ثم إن علوم الطب والتشريح والفسيولوجيا والبيولوجي تثبت ان الانسان مزدوج الجنس (بايسيكسوال) وانه ليس هناك من هو ذكر ١٠٠٪ أو من هي أنثى ١٠٠٪ ، وكل رجل داخله امرأة وكل امرأة داخلها رجل ، وان هرموني الذكورة والأنوثة يفرزان في كل من الرجل والمرأة ، لكن نسبة هرمون الأنوثة تزيد فى المرأة ، وفي الرجل تزيد نسبة هرمون الذكورة ، وان هذه النسب تختلف من شخص إلى شخص ، ومن سن إلى سن ، ومن وقت إلى وقت . وقد أثبتت الحقائق العلمية النفسية ان الانسان ليس مزدوج الجنس بيولوجياً فحسب ، ولكنه

مزدوج الجنس أيضاً من الناحية النفسية والوجدانية . وقد وصف نيومان (١٩٥٤) نوعين من الشعور داخل الانسان : الشعور الأبوي ، والشعور الأموي وان لكل انسان امكانيتين احداهما ذكرية والأخرى انثوية ، ويفصح كل جنس من الجنسين عن الامكانية التي حددها له المجتمع ، بينما تبقي الامكانية الأخرى كامنة في نفسه . ومعنى ذلك أن الرجال يظهرون صفاتهم الذكورية ويخفون صفاتهم الأنثوية ، وكذلك النساء يظهرن صفاتهن الأنثوية ويخفين صفاتهن الذكرية .

وقد خرجت ليتلجون وماكوبي (١٩٦٣) من أبحاثهما العلمية بأن النساء المبدعات ذوات القدرة على الخلق والابتكار يظهرن ميولاً ذكرية وكذلك المبدعون من الرجل يظهرون ميولاً أنثوية ، وذلك لأن هؤلاء الأشخاص الممتازين سواء كانوا نساء أو رجالاً يشعرون بقدرة على الخروج على تقاليد المجتمع ، ولايعانون من الكبت الذي يعاني منه غير المبدعين .

وقد خرج بارون (١٩٥٧) من دراساته العلمية بأن كثيراً من الناس يضحون منذ الطفولة بنبوغهم وقدراتهم الابداعية وذلك من أجل اخفاء احدى الامكانيتين الذكرية والأنثوية ، والمحافظة على صفات جنسهم ذكوراً كانوا أو اناثاً .

وكتبت كارين هورني تقول : (إن ازدواجية الجنس عند الانسان تظهر لدى الأطفال بوضوح أكثر من غيرهم ، لأنهم لايدركون كالكبار تحديد جنسهم . وقد ترى عند بعضهم رغبات جنسية مزدوجة ساذجة وبريئة ، وتشعر البنت أحياناً أنها ولد ، ويشعر الولد

أنه بنت . لكن المجتمع يحدد لكل منهما صفاته ودوره فيكبت الولد شعوره بالأنوثة وتكبت البنت شعورها بالذكورة) . ولهذا فان الرغبات الذكورية التي تظهرها البنت أحياناً ليس لأنها تحسد أخاها الذكر (كما قال فرويد) لأنه يمتلك عضو التناسل ، ولكن لأن هذه الرغبات موجودة فعلاً بالطبيعة في كلا الجنسين . ونحن لانرى بوضوح رغبة الولد في أن يكون بنتاً لأن المجتمع يميز الذكر وبذلك يصبح من العسير على الولد أن يترك ميزاته ليصبح بنتاً ، أما البنت فان ميزات الذكر الاجتماعية تشجعها على اظهار ميولها الذكرية .

وإذا كان الجهاز التناسلي يختلف في بعض أجزائه ووظائفه في المرأة عن الرجل فإنه يتشابه في البعض الآخر وذلك بسبب ان أعضاء الرجل هي أعضاء المرأة من حيث الأصل التشريحي . لكن عضو التناسل عند الرجل زاد فى نموه وحجمه عن عضو المرأة الذي ظل صغيراً ليكون البظر . وأعضاء المرأة الخارجية الأخرى يقابلها كيسا الرجل الخارجيتين . والخصيتان هما المبيضان ولكنهما هبطا من البطن إلى مابين الفخذين وهكذا .

وإذا كانت وظيفة الخصية هي إفراز الحيوانات المنوية ووظيفة المبيض هي إفراز البويضة وان الجنين ينمو فى رحم المرأة وليس في رحم الرجل فليس هذا الاختلاف في وظيفة عضو من الأعضاء مبرراً لكل هذه الفروق الضخمة التي وضعت بين الرجل والمرأة . وبالمثل فان الزيادة في نسبة الميلانين بجلد الزنوج ليست مبرراً للفروق الضخمة التي وضعت بين البيض والسود .

ومن حيث البيولوجي والفسيولوجي والتشريح فقد يختلف الرجل عن الرجل أو المرأة عن المرأة فلكل انسان جسمه الخاص به كالبصمة ولايمكن لمجتمع عادل أن يفرق بين الناس في حقوقهم الاجتماعية وواجباتهم بسبب اختلاف ما فسيولوجي أو بيولوجي لعضو من أعضائهم .

وإذا كانت المرأة هي التي تحمل الجنين تسعة أشهر في رحمها قبل أن تلده فليس ذلك معناه أن يصبح دورها الوحيد في الحياة هو الحمل والولادة . وإذا كان الرجل هو الذي يحمل الخصية التي تفرز الحيوانات المنوية فليس ذلك معناه أن يصبح دوره الوحيد في الحياة هو إفراز الحيوانات المنوية واخصاب المرأة . لايمكن أن يعيش الانسان حياته كلها ليلعب دوراً وحيداً يقوم به عضو واحد من أعضائه . لايمكن أن تعيش المرأة كرحم فحسب وكذلك لايمكن أن يعيش الرجل كخصية ، وإلا كان معنى ذلك تعطيل وإبطال لكافة الأجهزة والأعضاء الأخرى .

ويثبت علم الجينات والكروموسومات أن الضعف والسلبية اللذين ينسبهما المجتمع إلى طبيعة المرأة ليس لهما أساس علمي بل انه يتضح أن تكوين المرأة من الناحية الجسمية يعطي المرأة فرصاً أكبر من الرجل من حيث متانة التكوين أو الايجابية في الحياة . وبالتالي فان فكرة سيادة الرجل على المرأة لأنه الجنس الأقوى أو الايجابي ليست إلا من صنع المجتمع .

إن عدد الذكور الذين يولدون في كل أنحاء العالم يفوق عدد الاناث (١٠٦ ذكر لكل ١٠٠ أنثى) ومع ذلك فإن عدد الذكور

يتساوى مع عدد الاناث عند سن الخمسين في البلاد الصناعية المتقدمة . أما في البلاد الزراعية المتخلفة نسبياً فإن عدد الذكور يتساوى مع عدد الاناث عند سن الخمسة والعشرين .

إن هذا الارتفاع في نسبة الوفيات عند الذكور مقارناً بالاناث يؤدى إلى انه في سن الثمانين لايبقى على قيد الحياة سوى سبعين رجلاً لكل مائة امرأة .

ولو عرفنا أن جنس المولود يتحدد عن طريق الحيوانات المنوية ، وان السائل المنوي يحتوي على عدد متساو من الحيوانات المنوية ذات الصفات الذكرية أو الصفات الأنثوية فإنه من المفروض أن يولد عدد متساو من الذكور والاناث في أي مكان وزمان .

ولكن عند دراسة حالات الإجهاض اتضح أن نسبة الأجنة الذكرية تفوق بكثير الأجنة الأنثوية . وهكذا عند الولادة نجد أن عدد المواليد الذكور يفوق عدد الاناث بنسبة تتراوح بين (١٢٠ — ١٥٠) ذكرا مقابل (١٠٠) أنثى . وترجع هذه الكثرة في المواليد الذكور إلى محاولة الطبيعة لتعويض الكثرة التي تحدث في وفيات الذكور في كل مرحلة من مراحل العمر . أى انها عملية تعويض طبيعية تهدف إلى سد الثغرة الناتجة عن ضعف الذكور النسبي أمام المرض والموت .

وقد أثبت العلم أن المرأة أطول من عمر الرجل بنسبة سبع سنوات في المتوسط ، وقد فسر قصر عمر الذكر النسبي بأن الرجال يتحملون من أعباء الحياة أكثر مما تتحمله النساء . ولكن اتضح خطأ هذا التفسير بعد اجراء بحث استقصائي بين ثلاثين الف راهبة وعشرة

آلاف راهب يعيشون نفس الظروف المادية والاجتماعية والمعنوية ، لقد اتضح من هذا البحث أيضاً أن عمر الاناث يفوق عمر الذكور بسبع سنوات في المتوسط ، وهى نفس المدة التي لوحظت بين الناس العاديين .

فما هو السبب إذن في طول عمر المرأة ؟

إن التقدم الذي حققه علم الوراثة في الانسان ، والدراسات التي أجريت على أنواع مختلفة من الحيوان أوضحت أن ضعف الذكور النسبي (مقارناً بالاناث) أمام المرض والموت قد نتج من الفارق بين التراث الوراثي في الذكر والتراث الوراثي في الأنثى . ويتكون التركيب الوراثي للانسان من أربعة وعشرين زوجاً من الجزئيات الوراثية تسمى الكروموسومات . وهي توجد في نواة جميع الخلايا التي يتشكل منها جسم الانسان . ولو أننا نظرنا إلى أحد هذه الخلايا من خلال عدسة مكبرة تزيد من حجم الخلية ٢٠٠٠ مرة لرأينا داخلها هذه الكروموسات على شكل خيوط رفيعة ، منها ثلاثة وعشرون زوجاً كل منها من كروموسومين متشابهين تمام التشابه وتسمى هذه الأزواج المتشابهة بالاتوسومات ، (أو الكروموسومات المسماة غير الجنسية) ، وتتشابه كلها في الذكر والأنثى ، أما الذي يحدد جنس الجنين (ذكراً أو أنثى) فهو الزوج الرابع والعشرون ويسمى زوج الكروموسوم الجنسي ، وهو يشبه الاتوسومات شكلاً ولكن يختلف في وظيفته لأنه هو الذي يحدد الذكر من الأنثى .

ولقد وجد أن هذا الزوج في خلية الأنثى يتكون من كروموسومين

متشابهين اطلق عليهما (××)، أما خلية الذكر فهي تحتوي على كروموسوم (×) واحد فقط أما الكروموسوم الثاني فهو أصغر حجماً (١/٥ حجم الكروموسوم ×) وسمي كروموسوم (Y)، كما أنه يحتوي على عدد أقل من خيوط المادة الوراثية التي تتحكم في مختلف العمليات البيولوجية ، ووظيفته أقل ايجابية من الكروموسوم (×). وبالتالى فانه حين يخصب الحيوان المنوي الذي يحمل كروموسوم (Y) البيضة فانه يضعف نسبة الأنوثة المطلوبة لإحداث جنين أنثى ، وهكذا يرث الجنين الذكر مع ذكورته عدداً من الصفات المرتبطة بجنسه والتي تضعفه عن الأنثى أو تشوهه .

إن ظهور الشعر الغزير في مناطق متعددة من جسم الرجل قد يكون مشوهاً في بعض الأحيان . وقد اتضح أن الضعف الجنسي النسبي للذكور أمام المرض والموت مرتبط إلى حد كبير بالكروموسوم الذكري (Y) الصغير والسلبي نسبياً . وان كل تغير أو تشوه يصيب أحد الخيوط الوراثية في الكروموسوم له انعكاسات متباينة الخطورة على العمليات الكيماوية الحيوية (التحليل والتمثيل) في الخلايا ، وبالتالي على مختلف أجهزة الجسم الانساني . أن التحكم في العمليات الكيماوية الحيوية يتم عن طريق الأنزيمات والخيوط الوراثية التي تسمى أيضاً « جينات » والتي تسيطر على تكوين الانزيمات .

وحيث أن الخلايا في الأنثى تحتوي على زوج من الكروموسومات الجنسية من النوع (×) فإن أى نقص أو تشوه يصيب الجينات في أحد هذين الكروموسومين يمكن أن يعوض بسهولة عن طريق الجينات الطبيعية الموجودة في الكروموسومات الأخرى . ولكن إذا حدث أى نقص أو تشوه في تكوين أو وظائف الجينات الذكرية الموجودة في الكروموسوم (Y) فإنه يستحيل تعويضه لعدم وجود كروموسوم آخر من نفس النوع في الذكر .

ولقد ينتج عن ذلك ظهور قصور عضوي أو وظيفي بسبب غياب بعض الانزيمات الأساسية أو تكوين أنزيمات غير سليمة . ومن هنا حدوث بعض الأمراض الوراثية المرتبطة بجنس الذكور مثل مرض الهيموفيليا (النزف الوراثي الناتج عن عدم تجلط الدم) وهو مرض ينتقل عن طريق كروموسوم الأنثى ويصيب الأطفال الذكور فقط لعدم وجود الكروموسوم المعوض . ولنفس السبب تحدث الأمراض الوراثية الأخرى في الذكور مثل مرض عمى الألوان ، وبعض أنواع الأنيميا والضمور العضلي وغيرها . ويصل عدد هذه الأمراض الوراثية إلى مائة ، وهي جميعاً تصيب الذكر دون الأنثى .

ومن المحتمل أن ضعف مقاومة الرجال النسبي إزاء أمراض الدورة الدموية ينبع من هذه الظواهر الوراثية أيضاً .

إن جهاز الغدد الصماء يلعب دوراً هاماً فيما يتعلق بأمراض الدورة الدموية ، فالخصيتان في الذكر تفرزان هرمون الذكورة (التستوستيرون) تحت التأثير المستمر للمراكز المخية العليا والجزء من المخ المسمى الهيبوثالاماس (تحت السريرين) والذي يتحكم في الانفعالات البدائية وفي جهاز الغدد الصماء . أما في الانثى فان المبيض يفرز هرمونين اثنين أحدهما هرمون الاستروجين والثاني هرمون البروجسترون .

ومن المسلم به الآن أن هرمون الاستروجين يمارس نوعاً من الحماية لجهاز الدورة الدموية كما يتضح من الانخفاض المفاجىء لقدرة المرأة على مقاومة أمراض الدورة الدموية عند وصولها إلى سن انقطاع الطمث . وهذه الظاهرة ملحوظة في المرأة في هذا السن وعلى الأخص في حالات السكتة القلبية « التى تصيب الرجال من كل الاعمار » ولكنها لاتصيب النساء إلا في الفترة التي تلي انقطاع الطمث . ومن ناحية أخرى فهناك من يرى أن بعض الصفات الذكرية مثل الميل إلى العدوان ترتبط بالتكوين الهرموني للذكر . وقد أجريت بعض التجارب في هذا الشأن ، وحقنت بعض الاناث من الحيوانات بهرمون التستوسترون الذكري فنتج عن ذلك سلوك عدواني في هذه الاناث .

وبرغم سلامة مثل هذه التجارب من الناحية العلمية البحتة إلا أن العلم الحديث أصبح يتشكك في مثل هذه التجارب المعملية ، حيث أن عنصر العوامل البيئية والتربوية غير متوافر فيها . ومما لاشك فيه أن صفات الانسان وسلوكه في الحياة يتحدد حسب التربية التي يتلقاها منذ الطفولة وحسب الضغوط الاجتماعية التي يتعرض لها وليس حسب نسب الهرمونات التي تجري في دمه ، بدليل أن النساء الأمريكيات أكثر ميلاً للعدوان من الرجال في بعض البلاد الأخرى .

إن علم البيولوجي الحديث أوضح أن المرأة أقوى بيولوجياً من الرجل . أما القوة العضلية التي ارتبطت بالحياة القبلية فمما لاشك فيه أن الرجل كان يعتبر متفوقاً ، لكنه اتضح أن هذا التفوق في القوة العضلية كان يرتبط بوظيفة الرجل في الحياة أكثر من ارتباطه بتكوين الرجل البيولوجي ، بدليل أن الرجل المثقف في المدينة أقل من ناحية

القوة العضلية من العامل الزراعي في الريف والفلاحة المصرية أقوى من الناحية العضلية من الموظف القاهري .

هذا وان القوة العضلية في ظل المجتمع العصري لم تعد لها أهمية خاصة . فالانتصار في الحروب الحديثة لم يعد مرتبطاً بقوة الانسان العضلية ، بل على العكس أصبحت عوامل التفوق الذهني والتقدم التكنولوجي في وسائل الإبادة الجماعية هي العنصر الحاسم . وفي حروب أخرى كحرب فيتنام يرتكز الانتصار على الإيمان العميق بقضية عادلة .

وتشير نتائج البحث الطبية الاجتماعية أن تفوق الرجال على النساء لم يكن إلا اشاعة من صنع الرجال أنفسهم ، فالأطفال الذكور هم الضحايا الأساسيين في الحوادث القاتلة التي تصيب قطاع الناس الذين يقل سنهم عن ١٥ سنة (٦٨٪ من هذه الحوادث تصيب هؤلاء الأطفال الذكور). أما في البالغين فإن النساء لايتحملن سوى مسئولية ١٠٪ من حوادث الطريق ، ٦٪ من الحوادث القاتلة أثناء قيادة السيارات مع اجراء المقارنة على نفس المسافات كما انهن لسن مسئولات إلا عن نسبة ضئيلة جداً من حالات التشرد والإجرام : ١,٥٪ من الأحكام التي تصدر بالحبس بالسجن ، ١٠٪ من الغرامات أو الأحكام بوقف التنفيذ ، أقل من ٣٪ من الجنح الخاصة بالسكر ، وذلك مقارنة بالرجال الذين ينتمون إلى نفس المهن والبيئة العائلية والاجتماعية .

وإن حالات الانتحار بين الرجال تفوق عدد الحالات بين النساء بمقدار يصل إلى ثلاثة أو خمسة اضعاف حسب اختلاف البلاد .

وأن عدد مدمني المشروبات الروحية بين الرجال يصل إلى خمسة عشر ضعف الحالات المسجلة وسط النساء .

ورغم صفات الضعف والعاطفية التي التصقت بالمرأة فإن النساء يتحملن ظروف التهجير والغارات أكثر من الرجال . وقد لوحظ أن الأمراض النفسية العضوية (أمراض جسمانية تنتج عن عدم التكيف إزاء الضغوط الاجتماعية والعاطفية) لاتصيب النساء بنفس القدر الذي تصيب به الرجال . إن عدد حالات الإصابة بقرحة في المعدة في الرجال تصل إلى ثلاثة اضعاف مثيلاتها في النساء . كما أن الرقم يصل إلى خمسة اضعاف في حالات السكتة القلبية .

ومن المعروف أن المرأة تتعرض أكثر من الرجل لظروف اجتماعية قاسية ولاضطرابات نفسية بسبب الدورة الشهرية وانقطاع الطمث الذي يؤثر على المراكز العصبية المرتبطة بالغدد الصماء ومع ذلك فان عدد الرجال الذين يعالجون فى مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية يفوق بكثير عدد النساء . ورغم دخول أعداد كبيرة من النساء في مضمار الحياة العامة والعمل فإن شيئاً لم يتغير في هذا الوضع . ولايزال عدد الرجال الذين يهربون من الحياة إلى المخدرات أو الانتحار أو الإجرام أكثر بكثير من النساء ، برغم ان المرأة أصبحت تتحمل في الحياة أعباء مضاعفة بعملها داخل البيت وخارجه وتحت الظروف الاجتماعية السيئة نفسها التي تحرمها من كثير من الحقوق التي يتمتع بها الرجل . ويقول بعض العلماء أن الجهاز المخي والعصبي يصبح أكثر عرضة للإصابة بالخلل كلما كان أكثر تطوراً لأنه يصبح أكثر حساسية . ويدعون بذلك ان المرأة تتمتع بقدرة أكبر على التحمل

لأن جهازها المخي والعصبي أقل تطوراً ، وهذا ادعاء غير علمي لأن الجهاز المخي والعصبي في الرجل لايختلف عنه في المرأة ، وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث العلمية التي أجريت في بعض المدارس الابتدائية أن البنات عامة أكثر ذكاء من البنين وانهن يحصلن على درجات أعلى في التحصيل والذكاء وقوة الذاكرة .

وفقاً لأبحاث بعض العلماء مثل جيسيل وتيرمان فإن الأطفال البنات يتكلمن قبل الأطفال الذكور وأن البنات يتقدمن في النمو أسرع من الأولاد . وقد قال بعض العلماء أن تفوق البنات على البنين في الدراسة ليس بسبب تفوق الذكاء وإنما بسبب تربية البنت الصارمة التي تفرض عليها النظام والطاعة وعدم الخروج من البيت فتعطى وقتاً أكبر للمذاكرة . ويؤكد هذا أن بعض علماء النفس أثبتوا أن امتياز البنات على البنين في المراحل الأولى من التعليم لايستمر إذ أن القوى العقلية للبنت تهبط في مرحلة البلوغ وما بعدها بسبب الكبت الذي يبدأ البنت في المعاناة منه بسبب التربية الصارمة نفسها والصراعات والمصادمات والضغوط التي يفرضها عليها المجتمع .

وقد أثبتت مارجريت ميد في أبحاثها أن المجتمع وليس الطبيعة هو الذي يحدد ميول الأطفال ويشكلها منذ الصغر سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً . وقد أجرت مارجريت ميد تجربة طريفة في جزيرة مانوس بغينيا الجديدة ، وأثبتت خطأ الرأى الشائع بأن حب الأطفال البنات للعب بالدمية « العروسة » سببه دوافع أنثوية طبيعية ، وعدم اهتمام الأطفال الذكور بهذا النوع من اللعب إنما سببه اختلاف بيولوجي أساسي في استعداداتهم الوجدانية . وقد اختارت مارجريت ميد هذه الجزيرة لأن

اللعب بالدمى لم يكن معروفاً بها . وعندما قدمت مارجريت ميد بعضاً من هذه الدمى إلى مجموعة من الأطفال الذكور والاناث كان الذكور وليس الاناث هم الذين اهتموا بها ، بل راحوا يغنون لها ويهدهدونها لتنام كما تفعل البنت مع دميتها في مجتمعنا . وقد فسرت مارجريت ميد السبب في ذلك ، وهو أن عادات وتقاليد جزيرة مانوس تقتضي أن يتولى الرجال (لما لديهم من وقت فراغ) رعاية الأطفال ، على حين تنشغل النساء بالعمل خارج البيت .

وقد حاول بعض العلماء في السنوات الأخيرة معرفة أثر الجنس على المخ . فمن المعروف أن هرمونات الجنس تدخل المخ مع الدم . لكن البحوث العلمية حتى الآن لم تثبت وجود أى علاقة بين هذه الحقيقة الفسيولوجية وبين القدرة الفكرية أو السلوك .

وكان البعض يعتقد أن قدرة المرأة الفكرية أقل من الرجل لأن مخها أقل وزناً من مخه لكن اتضح خطأ هذا المفهوم بعد أن ثبت أن وزن مخ المرأة بالنسبة لوزن جسمها أثقل من وزن مخ الرجل بالنسبة لوزن جسمه .

ثم اتضحت حقيقة أهم من هذا كله وهي أن وزن المخ لا علاقة له بالقوة الفكرية .

ويعتقد بعض العلماء أن المرأة أذكى من الرجل لأن الفص الأمامى من مخها (والذى يعتبر مركز الذكاء) أكثر تطوراً منه في الرجل . على أى حال فإن المخ لم يعرف معرفة كاملة . ولم يستطع العلم أن يكشف عن أسرار وظائفه .

ومن حيث النبوغ والعبقرية والابتكار فليس هناك بحوث تثبت أن الرجل أكثر عبقرية من المرأة . ولكن عدد الرجال النابغين يفوق عدد النساء بسبب الظروف الاجتماعية التي تعيشها النساء والتي تحول بينهن وبين النبوغ . وكما قالت ماري استيل : « يجب على الرجل ألا يفخر أنه أكثر نبوغاً من المرأة مادام هو يحظى بفرص أكثر من التعليم العالي والعمل في الحياة الواسعة خارج البيت فكأنه يفخر بشجاعته لضرب رجل قيدت يداه وقدماه » .

ويشير تورانس إلى أن قلة عدد النابغات من النساء ليس لفروق نفسية كما عرف خطأ ، ولكن لأن الإبداع يتطلب الحساسية والاستقلال . وطبقاً لقيم المجتمع ونظمه فإن الاستقلال من ميزات الرجولة فحسب وعلى ذلك تفقد النساء الاستقلال وتفقد معه القدرة الإبداعية .

وفي علم النفس حقيقة علمية تثبت وجود علاقة بين الكبت وانخفاض القدرة الفكرية في الانسان ، وأن القدرة على الابتكار والخلق تعتمد على انعدام الكبت . وكما قال « بارون » : « إن الاصالة تعتمد على تجاوب الانسان الحر لمشاعره » . وحيث أن نصيب المرأة من الكبت منذ طفولتها حتى مماتها أضعاف نصيب الرجل فلابد أن قدرتها الفكرية تنخفض بسبب ذلك الكبت .

كما أن انعزال المرأة عن الحياة داخل البيت وانشغالها بأعمال البيت والأولاد تحول بينها وبين التفرغ للأعمال والتدريبات اللازم لتنمية قدرتها الفكرية أولاً بأول . وقد تطور علم النفس الخاص بالمرأة في السنوات الأخيرة وأثبت علماء النفس خطأ المفاهيم التقليدية عن

سيكولوجية المرأة . وقد كتب ديلياس يقول : (إن علم النفس الخاص بالمرأة ليس إلا رواسب رغبات الرجال وخيبة آمالهم) .

وقد اتضح أن الفروق النفسية الضخمة التي وصفها فرويد بين الرجل والمرأة لا أساس لها من الصحة . ويقول هارولد كيلمان : « أن فرويد تربى في مجتمع رجالي ، ونشأ في بيت كان فيه الرجل السيد والمرأة العبد » . وقد أخطأ فرويد في فهمه للمرأة ، واستخلص أفكاره عنها من الحالات المرضية التي كان يراها بين نساء أوربا الخاملات العاطلات ، ومن بعض مريضات وشواذ الطبقة البرجوازية فى مجتمع فيينا المتآكل ، وحكم فرويد بهذه الأفكار الشاذة على جميع نساء العالم ، وحكم بها عليهن من بعده جميع تلاميذه ومقلدوه ، ومريدوه وتابعوه من أطباء النفس .

وتمثل عقلية فرويد عقلية القرن التاسع عشر حين كان العقل البشرى في بداية تفتحه ومعرفته بالعلوم الطبيعية ، ولم يكن أدرك بعد أثر المجتمع والظروف في نفس الانسان . وأخرج فرويد كذكر « علم نفس مذكر » يرتكز على أن مصير الانسان يتحدد حسب أعضائه التناسلية والتشريحية .

وترتكز أفكار فرويد عن نفس المرأة أن البنت تكتشف في طفولتها انها لاتملك عضو التناسل الذي يملكه أخوها فتشعر نحوه بالحسد . ويقول فرويد : « إن النساء لسن كما هن نساء ، ولكنهن ذكور ، ينقصهن عضو التناسل . وهن يرفضن قبول هذه الحقيقة ، حقيقة أنهن مخصيات ، ويعشن بأمل أنهن سيحصلن على عضو تناسل رغم أى شيء » .

والمرأة السوية في نظر فرويد هي تلك التي تستبدل برغبة الحصول على العضو رغبة الحصول على طفل وهو يعني بذلك أن الأمومة عند المرأة ليست إلا رغبة ثانوية بديلة عن الرغبة الأصلية وهي الحصول على عضو الذكر .

ويقول فرويد أن البنت تلقي اللوم على أمها في حرمانها من هذا العضو ، ولهذا فهي تبتعد عن أمها وتقترب من أبيها بأمل الحصول على طفل . لكن سرعان ماتشعر بخيبة أمل في أبيها لأنه يخذلها ولايحقق لها رغبتها في الحصول على الطفل ، وبهذا تشفى من ميولها الأوديبية وتستسلم لدورها الأنثوي ، وترضي أمومتها ودورها الجنسي عن طريق الألم وامتهان النفس وقبول الاغتصاب .

هذه هي سيكلوجية المرأة السوية الطبيعية في نظر فرويد ، أما المرأة غير السوية فهي تلك التي تعجز عن أن تستبدل برغبتها الأولى الرغبة الثانية ، وتعيش في حسرة دائمة لأنها حرمت من عضو الذكر ، وقد ترفض دورها كأنثى في الحياة رفضاً تاماً ، أو قد تصبح ميولها ذكرية وتأخذ دور الذكر .

وقد أثبت كثير من العلماء خطأ هذه الأفكار ، وتقول كارين هورني (وهي من أشهر طبيبات النفس في العالم) : « إن البنت لاتحسد الولد لأنه يملك عضو التناسل ، ولكنها تحسده للميزات التي يعطيها المجتمع الرجالي للذكر » ، وتتفق كارين هورني مع هارولد كيلمان وغيره من العلماء في أن الثقافة اليهودية والمجتمع الذي عاش فيه فرويد ترك بصماته على أفكاره . وتقول هورني : « ان الثقافة اليهودية كما وردت في التوراة ثقافة أبوية ذكرية وهذه الحقيقة تظهر في

دينهم اليهودي حيث لاتوجد إله أنثى أو إلهة أم ، كالإلهة الأم القديمة . وفي قصة آدم وحواء أنكرت الديانة اليهودية قدرة المرأة على الإنجاب وأعطت هذه القدرة للرجل إذ قالت ان حواء ولدت من ضلع آدم ، وأن لعنة قد ألصقت بحواء إلى الأبد ذلك أن تلد في الألم والأسى . وان حواء هي السبب في شقاء آدم لأنها أغرته بأن يأكل من شجرة المعرفة كإغراء جنسي » ، وتعتقد كارين هورني أن الديانة اليهودية بهذه الأفكار هي التي أفسدت العلاقة بين الرجل والمرأة منذ العصور القديمة حتى الآن ، وخلقت بينهما الكراهية والقلق ــ هذه الكراهية وهذا القلق اللذان بنى عليهما فرويد أفكاره .

ويتجه علم النفس الحديث إلى إلغاء كل تلك الفروق الضخمة المصطنعة بين نفسية المرأة ونفسية الرجل . ويرى بعض العلماء ان الانسان مزدوج الجنس نفسياً كما هو مزدوج بيولوجياً . وقد وصف نيومان نوعين من الشعور داخل الانسان : الشعور الأبوي والشعور الأموي وأن لكل إنسان إمكانيتين إحداهما ذكرية والأخرى أنثوية . ويرى بعض العلماء أن تكوين المرأة النفسي كتكوينها البيولوجي أكثر متانة من الرجل . وتعتبر المرأة في رأي هؤلاء الجنس الأقوى وليس الجنس الأضعف كما أشيع .

ولعل هذا الاعتقاد يتفق مع الاعتقاد البدائي بقوة المرأة ، وقد كانت الإلهة القديمة هي الأم والأنثى . ولم تكن الإلهة الأم تمثل الأمومة الروحية ولكنها كانت تمثل الأمومة بمعناها الطبيعي البدائي . إن الأم الإلهة القديمة كانت إلهة الأرض ، خصبة الأرض ، تخلق الحياة الجديدة وتغذيها . إن هذه القوة الخالقة في المرأة وهي قوة بدائية هي التي

ملأت الرجل بالإعجاب . ومن المعروف علمياً ان الانسان يعجز بحكم طبيعته البشرية أن يحتفظ بإعجابه بقدرة ما ، دون الشعور بالكراهية لهذه القدرة ، التي لايملكها هو ، ويملكها غيره . ومن المعروف أن الكراهية تولد الخوف أو أن الخوف يولد الكراهية ، ولهذا فإن خوف الرجل من قوة المرأة قديم قدم الزمن ، مدفون في اللاوعي يزداد حدة في فترة إخصاب المرأة ، ويظهر بوضوح عند بعض القبائل البدائية .

إن بعض القبائل الأفريقية تؤمن بأن المرأة إذا خطت فوق ساق رجل نائم فإنه يعجز جنسياً . وقبيلة أرونتا تعتقد أن المرأة يمكن بالسحر أن تجعل زوجها عاجزاً جنسياً وتسقط عنه أعضاؤه التناسلية . وهناك حتى الآن اعتقاد في الريف المصري بأن المرأة قد تعمل سحراً لزوجها إذا هجرها فيعجز جنسياً . وان سكان ميري في البنجال لايسمحون للنساء بأن يأكلن كالرجال لحم النمر خشية أن يصبحن قويات ، وأن قبيلة واتاولا في شرق أفريقية يخفون سر عمل النار عن النساء خشية أن تحكمهن النساء ، ويعتقدون أن الرجل الذي يلمس المرأة في فترة الحيض يسقط ميتاً . وهناك كثير من الأمثلة على لهذا خوف الرجل من مظاهر إخصاب المرأة كالحيض والحمل والولادة . وهناك فكرة واحدة وراء كل هذا الخوف وهو أن المرأة المرأة لها قوة غامضة قادرة على الاتصال بالأرواح وقادرة على السحر وإيذاء الرجل .

وكان من الطبيعي أن يقاوم الرجل خوفه من المرأة بوسائل شتى ، منها ازدراء صفات المرأة البيولوجية الطبيعية كالحيض والحمل

والولادة ، وتحقير أعضاء المرأة وتمجيد أعضاء الرجل إلى غير ذلك من الأساليب الدفاعية التي يلجأ اليها الخائف ضد الشيء الذى يخيفه . وتركز خوف الرجل من المرأة في الناحية الجنسية بالذات ، لأنه أثناء الجنس يسلم عضوه التناسلي لها فاذا بها تسحب منه سائله المنوي وتسحب معه صلابته ثم تتركه هامداً بغير الصلابة التي كان عليها . ومن هنا الاعتقاد الشائع بأن المرأة تسحب قوة الرجل أثناء الجنس . وفي الأساطير الأفريقية فان المرأة هي التي تسبب الموت في العالم . وكذلك الاعتقاد بأن الأم الإلهة القديمة هي التي تبعث الموت والدمار . وكأنما أدرك الانسان البدائي أن الذى يصنع الحياة هو القادر على أخذها .

وكم يدلنا التاريخ القديم على حقائق غريبة تلقي ضوءاً على تلك الأفكار التي أحاطت بعلاقة الرجل والمرأة والمفاهيم الخاطئة عن المرأة جسداً أو نفساً . وقد كان فرويد بغير شك أحد هؤلاء الرجال الذين عانوا من خوفهم القديم الدفين من المرأة ، ولأنه كان عبقرياً فقد صنع من خوفه حقائق علمية لم يكتشف خطؤها للأسف إلا مؤخراً .

الأسباب الحقيقية

لم تعد الأسباب الحقيقية التي دعت المجتمع إلى خلق الفروق الضخمة بين الرجل والمرأة خافية على هؤلاء الذين يقرأون التاريخ ويدرسون حركة التطورات الاجتماعية والاقتصادية في تاريخ البشرية منذ الانسان حتى أيامنا هذه .

ولست بصدد سردها وتحليلها من البداية حتى الآن ولكني سأحاول بعض الحقائق التي تكشف عن تلك الأسباب وعن أن المجتمع هو صانعها وليس الطبيعة .

في عهد الصيد وعهود ماقبل التاريخ كان الانسان البدائي ينتقل من مكان إلى مكان ليصيد طعامه ، وكان الرجال والنساء يعيشون معاً ويتزاوجون ، وحينما يولد الأطفال يصبحون أفراداً في القبيلة أو العشيرة بصرف النظر عن آبائهم أو أمهاتهم . ولم يكن الاخوة أو الأخوات هم أبناء أو بنات أب واحد أو أم واحدة . كانوا جميعاً أبناء القبيلة بالتساوى . وكانت المرأة تتزوج عدداً من الرجال والرجل يتزوج عدداً من النساء وأطلق « باكوفين » على هذا النوع من العلاقات المتعددة بالزواج الجماعى .

وقد توصل بعض الباحثين في عهود ما قبل التاريخ إلى هذا النوع من العلاقات الجماعية التي كانت تخجل الباحثين لاعتقادهم انها

كانت تدل على همجية الانسان البدائي وعدم تمدينه . ولكن أحدهم وهو « ليتورنو » كان أكثر شجاعة وأمانة وقد استطاع أن يصف هذه العلاقات الجنسية ويشرح « فردريك انجلز » في كتابه « أصل العائلة » كيف تطورت العلاقة الزوجية في عهود ماقبل التاريخ ، وأن تعدد العلاقات الزوجية ليس معناه انحطاط الانسان الأول وأن الوحدانية في التزاوج ليس معناها سمو الانسان الحديث . وكتب انجلز « إذا كانت الوحدانية في التزاوج هي قمة الفضائل فلابد أن أكثر الكائنات فضيلة هي الدودة الشريطية التي يشتمل كل جزء من أجزاء جسمها (والتي تتراوح ما بين ٥٠ ـــ ٢٠٠ جزءاً) على جهازي التذكير والتأنيث » .

وكشف ليتورنو من أبحاثه العلمية في مختلف أنواع القرود والثدييات عن انه لاتوجد علاقة في الثدييات بين درجة الذكاء وشكل العلاقة الجنسية .

وكان « بيكوفين » أول من اكتشف النظام الأموي الذى كان يسود فى العهود البدائية والبربرية . ففي هذه الأسر الجماعية لم يكن من السهل معرفة الأب ، لكن الأم كانت معروفة لأنها هي التي تلد الأطفال ، ولهذا نسب الأطفال إلى أمهاتهم وكانت الأم هي عصب العائلة .

وكانت المرأة تقوم بأكثر أعباء الحياة وكانت لها مرتبة أعلى من مرتبة الرجل وكانت العشيرة تحترمها احتراماً كبيراً .

ثم عرف الانسان تربية الماشية والأغنام ولم يكن يملك إلا البيت والملابس وأدوات للطعام وقوارب صيد وأدوات للزينة ، ولم يكن

يملك إلا ملابسه . لكن تربية الماشية والأغنام ، ثم بعض الأعمال العادية البدائية والنسيج ثم زراعة الأرض جعلت انتاجه يزيد عن حاجته فتجمعت لديه بعض الثروة وأصبح مالكاً لأرضه .

ولأن تناسب الانسان لم يكن بالسرعة التي تتناسل بها الأغنام والماشية فقد بدأ المالك البدائي يشعر بحاجته إلى أشخاص آخرين ليعاونوه في الزراعة وتربية الماشية . وبدأ الانسان الأول يغزو القبائل الأخرى ويصطاد منها بعض الأسرى يسوقهم معه إلى أرضه وبيته ليكونوا خدما وعبيداً .

ولم يستطع المالك البدائي أن يورث أبناءه أرضه لأن أولاده كانوا ينسبون إلى أمهاتهم وكانت الأرض تذهب إلى أقارب الأم بحكم قرابة الدم .

وعندما زاد الانتاج وزادت الثروة وزادت معها الملكية الخاصة فرض الرجل سيطرته أكثر وأكثر وانتزع من الأم حقها الأول لينسب أولاده إليه ويورثهم أرضه وأملاكه .

ويقول انجلز ان ضياع حق الأم في النسيب كان هزيمة النساء التاريخية الكبرى . فقد سيطر الرجل على البيت أيضاً وأصبحت المرأة عبداً له تقوم على خدمة شهوته وتكون أداة لانجاب أطفاله ، وأعطى نفسه حق قتلها كما كان يقتل عبيده .

وبدأ النظام الأبوي يتطور أكثر وأكثر لصالح الرجل بطبيعة الحال . وفرض الرجل على المرأة أن تكون له وحده حتى لايختلط أولاده بأولاد الغير ، وأعطى نفسه حق تعدد الزوجات والخليلات فأصبحت الوحدانية في الزواج فرضاً على المرأة وحدها .

ومن هنا نبعت القيم الأخلاقية التي تحكم على المرأة بالعفة والوحدانية في الزواج وتعطي الرجل حرية الاتصال بمن يشاء من النساء وتعدد الزوجات . وقيدت المرأة بالقوانين التي تسحب من أطفالها شرعيتهم إذا لم يعترف بهم أبوهم . سلب الرجل حق الأم في الجنين الذي ينمو في أحشائها وجعل نفسه مالكاً لهذا الجنين ، يمنحه اسمه فيصبح ابناً شرعياً يستحق الميراث ويستحق الحياة في المجتمع ، أو لايمنحه اسمه وينكره فيصبح طفلاً غير شرعي يحكم عليه المجتمع وعلى أمه بالموت أو الحياة الذليلة التي هي الموت سواء بسواء .

ويخفي المجتمع الدوافع الاقتصادية الاستغلالية التي نشأت بنشوء الملكية الخاصة والتي فرضت العفة على المرأة وليس الرجل ، ويسوق دوافع أخلاقية . لكن الحقائق التاريخية والعلمية تثبت في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع أن القيم الأخلاقية والقوانين تخضع للضرورة الاقتصادية . وليس أدل على ذلك من التطورات التي حدثت في علاقة الرجل والمرأة بعد أن تغير المجتمع من الزراعة إلى التصنيع ومن التصنيع إلى عهد التكنولوجيا والآلات الحديثة . كذلك تغيرت علاقة الرجل والمرأة في بعض البلاد بانتقال المجتمع من الرأسمالية إلى الاشتراكية .

في الفترات الأولى لعهد التصنيع كان المجتمع فقيراً يعاني من انخفاض شديد في المستوى الاقتصادى للناس ، وكانت ولادة الأطفال خارج الزواج تهدد المجتمع اقتصادياً . ولم تكن المرأة تعمل وتعول نفسها بل كانت عالة على الرجل ، ولهذا اشتدت القيود الاخلاقية على النساء وحرمت العلاقة الجنسية خارج الزواج وأدانت الأطفال غير الشرعيين .

وعندما انتعش المجتمع اقتصادياً بتطور الصناعة وزادت الثروات وارتفع المستوى الاقتصادى والثقافي للناس وبالتالي انخفض عدد المواليد بدرجة شديدة أصبح المجتمع يعاني من نقص في السكان فإذا به يتغاضى عن ولادة الاطفال بأي شكل سواء داخل الزواج أو خارجه .

وهذا هو مايحدث الآن في بعض البلاد المتقدمة ومنها السويد . فقد سبب التطور الصناعي ارتفاعاً كبيراً في الثروات كما أن المدنية والتقدم الثقافي وخروج المرأة إلى العمل قد أحدث هبوطاً كبيراً في عدد المواليد . وبسبب الازدياد المضطرد في الثروات والقلة المضطردة في عدد الأيدي العاملة والسكان فقد اضطر المجتمع السويدى مثلا إلى دفع مكافآت للأم التي تلد طفلا سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة . وهكذا حصلت الأم غير المتزوجة على مكافأة المجتمع عن طفلها الوليد بدل العقاب القديم وتمتع الطفل غير الشرعي بجميع الحقوق التي يتمتع بها الطفل الشرعي .

وهناك عامل اقتصادي آخر هو خروج المرأة للعمل خارج البيت ، ولم يسمح لها المجتمع بذلك الدور الجديد خارج البيت الذي تؤديه إلا بسبب الضرورة الاقتصادية التي نشأت مع التصنيع . فقد أصبح المجتمع في أشد الحاجة إلى الأيدى العاملة وبالذات في فترات الحروب حين كانت الحرب تسحب كثيراً من الأيدي العاملة من الرجال ، واضطر المجتمع إلى الاستعانة بالنساء بل والأطفال أيضاً ، ولم تعط النساء بطبيعة الحال في مثل ذلك المجتمع الاستغلالي المساواة مع الرجال في الأجور أو حقوق العمل الأخرى ، لكنها

تحررت من الانغلاق داخل البيت ، وتحررت من كونها عالة على الرجل ، وأصبحت قادرة على اعالة طفلها الذي تلده سواء اعترف به الرجل أم لم يعترف . ومن هنا حصلت المرأة في كثير من البلاد الصناعية المتقدمة على حقها الطبيعي القديم في منح اسمها لطفلها . ولم تعد مثل هذه المجتمعات تفرق بين الاطفال الحاصلين على أسماء أمهاتهم وهؤلاء الحاصلين على أسماء آبائهم سواء داخل الزواج أو خارجه . وفي بعض البلاد يصل الطفل على أسمي الأب والأم معاً ثم يختار من بعد الاسم الذي يفضله لنفسه .

وقد يندهش بعض الناس حين يدركون أن القيم الاخلاقية تتغير وتتبدل في المجتمع حسب الضرورة الاقتصادية ، بل لعلهم يندهشون أكثر حين يدركون أن الحقائق العلمية ذاتها تتغير بتغير النظام الاجتماعي والاقتصادى . وقد لايكون غريباً أن تتغير بعض النظريات والحقائق في العلوم المتصلة بالنظام الاجتماعي كعلم القانون أو علم المجتمع أو علم الاقتصاد ، ولكن أن تتغير الحقائق والنظريات العلمية في علوم مثل الطب أو علم النفس فهذا يدل على أن العلم في المجتمعات الاستغلالية يستغل أيضاً ويصبح رجال العلم كرجال القضاء والبوليس أحد أدوات الحكم .

وقد كشف بعض علماء النفس أخيراً عن خطأ الكثير من الحقائق والنظريات التي نشرها علماء النفس في ظل المجتمع الرأسمالي وعلى رأسهم سيجموند فرويد . مثال ذلك نظرية « التسامي » وهو الاصطلاح الذي وضعه فرويد لعملية توجيه الطاقة الجنسية في الانسان إلى أعمال في المجتمع غير جنسية .

ويقول علماء النفس الجدد أن مفهوم « التسامي » نبع من الضرورة الاقتصادية التي سادت المجتمع الرأسمالي في بداية عهده بالتصنيع حين كان المجتمع ينتقل من الزراعة إلى الصناعة . كان المجتمع في ذلك الحين محدود الامكانيات ولم تكن الصناعة تقوم على الآلات وإنما على الجهد الانساني ، ولهذا كان المجتمع في أشد الحاجة إلى عرق العمال وجهدهم ليل نهار . ولم يكن يستطيع المجتمع أن يحقق هذا إلا بالقوة عن طريق القهر المادي أو الاجتماعي وكذلك بجعل العمل والصناعة ضرورة نفسية عن طريق خلق قيم أخلاقية تمجد العمل وتجعله واجباً مقدساً وليس مجرد واجب فحسب .

ولهذا فقد صاحب تجميع رأس المال في تلك الأزمنة الأولى للرأسمالية مجموعة من قيم أخلاقية ترتكز على العفة والتطهر والعزوف عن متع الحياة والاستقامة بشتى أشكالها ، وسميت هذه القيم بالقيم الأخلاقية البيوريتانية (أو العظيمة النقاء) .

وقد ظهرت هذه القيم البيوريتانية في انجلترا وبلاد أوروبا المختلفة على شكل الأخلاقيات البروتستانتية المتزمتة .

وكان علماء النفس في ذلك الحين وعلى رأسهم فرويد قد خرجوا إلى الناس بذلك المفهوم الذي أطلقوا عليه « التسامي » ويرتكز على أن الإنسان الذي يكبت غريزته الجنسية ويحولها إلى أعمال أخرى غير الجنس فهو يتسامى بها إلى أعمال أخرى أكثر قيمة وأكثر نبلاً .

وحينما بلغ المجتمع درجة عالية من التصنيع ، وارتفع مستوى المعيشة ، وانخفض عدد ساعات العمل ، ولم يعد العمل يعتمد على القوة الجسمية للانسان . حينما أصبحت قوة الانسان مرتفعة الثمن .

وحينما استدعى التطور التكنولوجي واستمرار التطور الاقتصادي زيادة في استخدام الآلات والمكنات ، حينئذ فقدت القيم الأخلاقية البيوريتانية وظيفتها . وأصبح من الطبيعي لمجتمع استهلاكي ألا يمجد قيم العزوف عن متع الحياة والاستقامة والادخار والتسامي وغيرها من القيم التي تقلل استهلاك الفرد .

وبدلاً من ذلك أصبح المجتمع في حاجة إلى أن يصنع لنفسه أخلاقيات أخرى تعتمد على اشباع رغبات الإنسان وحاجاته . بل وخلق احتياجات جديدة في الإنسان ، وتمجيد معنى الانفاق والاستمتاع بالحياة .

ومما لاشك فيه أن التغيير الأخير الذي حدث في نظرة البلاد الرأسمالية المتقدمة إلى القيم الاخلاقية وفي اتجاه هذه البلاد إلى تحطيم المحظورات التقليدية على علاقة الرجل والمرأة وتحرير الجنس من قيوده القديمة هذا التغيير لم يحدث إلا نتيجة تغير الوسائل لتجميع رأس المال .

ان « التسامي » وتحويل الطاقة الجنسية إلى أعمال أخرى لم تعد ضرورية كما كانت من قبل ، حيث أن اشباع الرغبة الجنسية لم يعد يؤثر على الانتاج كما كان يؤثر عليه في مجتمع غير آلي .

ويقول بعض العلماء انه بالإضافة إلى ماسبق فإن الحرية الجنسية أصبحت ضرورية لحماية المجتمع الرأسمالي من التمرد والثورة . فقد نتج عن التقدم التكنولوجي والآلي ان انخفضت كمية الجهد والوقت اللذين يبذلهما الإنسان في العمل . وبازدياد وقت الفراغ عند الناس بدأت الأذهان تتنبه إلى مساوىء النظام الرأسمالي وإلى مظاهر عدم

المساواة أو الظلم الواقع على الطبقات الكادحة من المجتمع . وهكذا رأى الرأسماليون تصريف هذه الطاقة إلى الجنس بدلاً من أن تتجمع وتصبح قوة تمرد وثورة ضد المجتمع القائم .

على أن هذا الوضع الجديد لايعني ازدياد الحرية الجنسية فحسب . ان الاهتمام في المجتمع الاستهلاكي يمكن أن يتحول أيضاً إلى اصطناع احتياجات في الإنسان لشراء الأشياء وامتلاكها . أن هذه الاحتياجات تصبح مصنوعة حين تدفع الإنسان إلى شراء أشياء لايحتاجها وإنما يرغب في امتلاكها فحسب .

وتختلف المجتمعات الرأسمالية في الأسلوب الذي تتحرر به من الأخلاقيات البيوريتانية باختلاف التقاليد الموروثة في المجتمع . هناك مجتمع مثل مجتمع السويد والدانمارك مثلا قد ورثا تقاليد قوية تحرم الاجرام والعنف بينما التقاليد الموروثة التي تحرم الجنس أقل قوة . والعكس صحيح في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ورث المجتمع الأمريكي (من كثرة الحروب الأهلية والصراع العنصرى) تقاليد تبيح العدوان والعنف وتجعل المجتمع يتقبلها أكثر من تقبله للتحرر الجنسي . ولهذا فقد أصبح المجتمع الأمريكي يميل إلى اباحة العنف والجريمة أكثر من اباحته للحرية الجنسية .

حينما كنت في نيويورك سنة ١٩٦٦ كدت أقتل في منتصف النهار في ميدان وشنطن بإحدى الرصاصات الطائشة التي كانت تنبعث من سيارة طويلة أنيقة ركبها عدد من الشباب .

ومن كثرة الجرائم وانتشارها فقد عززت ولاية مدينة نيويورك (في ذلك العام الذي عشته فيها) قوات الأمن وبالذات في القطارات التي

تسير تحت الأرض ، وأصبح بكل عربة رجل بوليس على الأقل . وكانت صديقاتي الأمريكيات ينصحنني بعدم الخروج ليلاً .

وقد زرت السويد والدانمارك في سنة ١٩٧١ ، وكنت أهبط من حجرتي في الفندق بعد منتصف الليل لأسير في شوارع ستوكهولم أو كوبنهاجن الهادئة الآمنة ، الخالية إلا من بعض العاشقين والعاشقات .

وقد شهدت بالطبع مقدار الحرية الجنسية التي يبيحها المجتمع السويدي والدانماركي لأفراده الرجال والنساء ، وأطلعت على بعض الأبحاث التي أجريت في السنوات الأخيرة في السويد والتي تثبت أن ٩٨٪ من الأزواج والزوجات سبق لهم ممارسة الجنس قبل الزواج وأن ٢٪ فقط من الرجال أو النساء لايمارسون الجنس قبل الزواج . هذا وقد أصبح الشباب من الجنسين في هذه البلاد يميلون أكثر وأكثر إلى نبذ فكرة الزواج بعقد مكتوب .

ولم تعد هناك فروق بين الرجل والمرأة من حيث الحرية الجنسية وكما كان من حق الرجل أن يمارس الجنس وقتما شاء ومع من يرغب من النساء أصبح من حق الفتاة أن تفعل بالمثل .

وتلاشت القيمة الأخلاقية التي كانت تعد ممارسة الجنس بغير عقد الزواج خطيئة وأثماً . ومن أقوال روبرت بريفولت في كتابه (الاثم والجنس) سنة ١٩٣١ : « ان المساواة الاقتصادية والسياسية للرجال والنساء تفرض المساواة الاخلاقية . وهكذا تكون النتيجة المنطقية أن أخلاقيات المرأة في المستقبل ستصبح كاخلاقيات الرجل الفيكتوري المسيحي المحترم . وهذا يعني بطبيعة الحال انهيار الاخلاقيات المسيحية » .

ولاشك ان استقلال المرأة الاقتصادى بسبب العمل خارج البيت هو العامل الأساسي في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات ومنها حق الحرية الجنسية . على أن هناك عاملاً آخر لعب دوره أيضاً ، وهو اكتشاف وسائل منع الحمل . فقد أصبحت العلاقة الجنسية لاتؤدي إلى ولادة طفل بغير إرادة الأم .

كما أن حق الأم في الاجهاض أصبح مكفولاً في بعض المجتمعات المتقدمة وأصبح الاتجاه إلى اباحة الاجهاض يزيد شيئاً فشيئاً في مجتمعات متعددة ، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وتساوت النساء في عديد من البلدان من حيث الحصول على اجهاض نظيف وتحت اشراف طبي وبأجر زهيد دون التعرض لاستغلال بعض الأطباء لمثل هذه العملية حين تؤدى من وراء القانون .

وقد اعترفت هذه المجتمعات (للأسباب السابق ذكرها) بحق المرأة في اللذة الجنسية كالرجل ، وأدى ذلك إلى اهتمام العلماء بالمرأة وبدراسة الأسباب التي تحول بينها وبين الاحساس بلذة الجنس . ولعل أهم هذه الأسباب هو مايسمى بالبرود الجنسي الذي يصيب النساء الكبت وضغوط المجتمع .

وقد أجرى كينزي سنة ١٩٥٣ بحثاً بين الزوجات الأمريكيات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج فاتضح له أن ٤٠٪ منهن لم يعرفن قمة اللذة في الجنس خلال السنة الأولى من الزواج ، وأن ٣٥٪ منهن لم يعرفنها بعد ١٠ سنوات من الزوج .

وقد زاد اهتمام العلماء والباحثين بدراسة البرود الجنسي عند المرأة وخرجوا بأن الكبت والضغوط الاجتماعية هي السبب الأساسي لهذا

البرود . وتعددت البحوث الطبيعة التي تدرس أثر الكبت والحرمان على المرأة والرجل على السواء ، وفي جميع مراحل العمر من الطفولة حتى الشيخوخة ، وخرجت هذه البحوث بأن للكبت والحرمان آثاراً شديدة الضرر على جسم الإنسان ونفسه وعقله في مراحل النمو المختلفة منذ الولادة حتى الممات وأن الضرر على الجهاز العصبي والغددي لايقل عن الضرر على الجهاز التناسلي بل يزيد .

ان أى جهاز في الجسم يحتاج إلى تنشيط لينمو . وكذلك الجهاز التناسلي إذا حرم من التنشيط حرم من النمو .

وعلى حسب درجة الحرمان من التنشيط تكون درجة الحرمان من النمو إذا كان الحرمان من التنشيط (أو الكبت) شديداً أصيب الجهاز التناسلي بضمور يسمى طبياً باسم الضمور التكويني الناشيء من الخمول الوظيفي ، ويصاب مثل هذا الشخص بضعف جنسي ويظهر هذا الضعف بوضوح على الاشخاص المكبوتين الذين يمتنعون عن مزاولة أى نشاط جنسي ــ وحينما يتزوجون متأخراً يصابون بتلك الحالة المعروفة طبياً باسم « الارتخاء الجنسي الناشيء من الامتناع » ويؤدي هذا الحرمان أو الكبت الشديد إلى تعطيل النمو العقلي وينتج عن ذلك ضعف في الادراك والشعور والسلوك . وقد صور الدكتور يوسف حلمي جنينة أستاذ الأمراض العصبية بجامعة القاهرة أثر هذا الكبت الجنسي على الجهاز العصبي وقال : من المعروف أن حرمان المخ من المؤثرات الصوتية أو الضوئية في الصغر يؤدي إلى الصمم والبكم أو العمى ، فإذا كان المخ يتأثر لهذه الدرجة بحرمانه من مثل هذه المؤثرات الخارجية المكتسبة فماذا يكون مصيره إذا حرم من

المؤثرات الجنسية الغريزية المتعلقة باستمرار الحياة ؟ ويقول الدكتور جنينة أن كثيراً من التربويين لايزالون يعتقدون أن الاعلاء المبكر للغرائز أكبر صيانة لها من الجموح والانحراف ، وهذا في رأيه اعتقاد خاطىء لأن عملية الاعلاء الجنسي التي تقوم بها المراكز المخية العليا تتطلب طاقة جنسية وهذه الطاقة تتطلب مادة وهذه المادة تتطلب نمواً ونضجاً جنسياً وهذا النمو الجنسي يتطلب تنشيطاً ، أى أن الإعلاء لايحدث في رأيه إلا بعد اتمام عملية النمو والنضج الجنسي وما يتطلبانه من تنشيط مستمر .

علاقات نفعيـــة

يتضح مما سبق أن الضرورة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة قد أباحت للمرأة بعض الحريات والحقوق التي سلبتها منها من قبل ضروريات اقتصادية من نوع آخر .

وكما أدرك الزنجي أن اللون الأسود الذى صبغت به الطبيعة وجهه ليس مبرراً لأن يكون عبداً للرجل الأبيض كذلك أدركت المرأة أن الحمل الذى اختصتها به الطبيعة ليس مبرراً لأن تكون عبداً للرجل أو تابعاً أو مملوكاً .

ولكن ليس هذه إلا بضع خطوات على طريق تحرير النساء واستقلالهن ومساواتهن الحقيقية بالرجل ، ولايزال الطريق وعراً ، تحكمها القيود التي وضعها الرجال الاقطاعيون والرأسماليون بل أقول أيضاً أن هذه الاقلية من نساء العالم المتقدم التي استردت بعض حقوقها لاتزال محرومة من كثير من الحقوق التي يستمتع بها الرجال ، ولاتزال تواجه مشاكل كثيرة في العمل خارج البيت وداخله وفي تربية الاطفال ، وفي الحصول على أجور متساوية مع أجور الرجال وفي الحصول على الوظائف العالية ومناصب الحكم التي يحتكرها الرجل لنفسه .

ولا تزال كثير من المجتمعات المتقدمة تستغل النساء في العمل

داخل البيت وخارجه . وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث التي أجريت في بلاد أوروبا الشرقية والغربية أن النساء العاملات المتزوجات أقل فئات المجتمع على الاطلاق حصولاً على وقت للراحة . فالمرأة تعمل خارج البيت عدد الساعات نفسها التي يشتغلها الرجل ثم تعود إلى البيت لتخدم زوجها وأطفالها . وقد بدأت الحركات التقدمية في العالم تكشف هذا الاستغلال الشديد للنساء وبدأت بعض البلاد التي تحاول تطبيق الاشتراكية والعدالة أن توفر دور الحضانة وأن تحمل عن المرأة مهمة تربية الأطفال وأن تخفف عنها بعض أعبائها المنزلية بالوسائل المختلفة . لكن ما من دولة حتى الآن استطاعت أن تحقق هذا الأمل لجميع الأمهات ولايستمتع بدور الحضانة إلا نسبة قليلة من الأطفال ولاتزال الأغلبية الساحقة من الأمهات العاملات مرهقات بالعمل خارج البيت وداخله ، خاصة وأن الرجل في أكثر البلاد تقدماً لايزال يعتقد أن أعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مسئولية المرأة وحدها ، ويتجاهل الرجل أن المرأة تشاركه أيضاً الإنفاق على الأسرة والأطفال .

حينما كنت في المانيا الشرقية في نوفمبر سنة ١٩٧١ عرفت أن الدولة لم تستطع أن توفر من دور الحضانة إلا مايكفي ٣٠٪ فقط من أطفال النساء العاملات ، وأن هناك مشكلة كبيرة تواجه أغلبية الأمهات العاملات ، إذ أن الرجل الالماني لازال يعتقد أن أعمال البيت وتربية الأطفال إنما هي مهمة المرأة وحدها سواء كانت متفرغة بالبيت أو عاملة . وقد قال لي أحد أطباء النفس الالماني أن حل هذه المشكلة يحتاج إلى وقت حتى تتعمق المفاهيم الاشتراكية والمساواة في نفوس الرجال الالمان ، خاصة وأن المانيا تأثرت بالطبع بالحكم

النازي ، وكان هتلر يقول أن حياة المرأة تتلخص في الأطفال والمطبخ والكنيسة ، وإنه ما من صراع يمكن أن يوجد بين الجنسين طالما أن كل جنس يقوم بالمهام التي فرضتها عليه الطبيعة .

وبهذا كانت أفكار هتلر عن المرأة تتفق مع أفكار فرويد وغيره من علماء النازية والاستعمار الرأسمالي .

وعلى هذا فإننا ندرك أن المرأة العاملة في أكثر البلاد تقدماً لاتزال مستغلة لجمعها بين عملها داخل وخارج البيت ، ولاتزال هذه المشكلة تحول بين المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة ، ولاتزال تعوق المرأة عن إثبات قدراتها الحقيقية في العمل والانتاج .

وقد استطاعت بعض البلاد المتقدمة الاحساس بضخامة هذه المشكلة وبدأت بعض الآراء في السنوات الأخيرة تنادي بتغيير المفهوم التقليدي لدور كل من المرأة والرجل في الحياة . ويرتكز هذا الرأى الجديد على أن المرأة تعمل خارج البيت كالرجل ولهذا يجب على الرجل أن يشارك المرأة مسئولياتها داخل البيت وفي تربية الأطفال .

إن المفهوم التقليدي بأن المرأة هي المسئولة عن تربية الأطفال والخدمة بالبيت وأن الرجل هو المسئول عن العمل خارج البيت إنما هو مفهوم خاطىء نابع من الوضع الاجتماعي الذي وضعت فيه المرأة ، ونتج عن هذا تخلف المرأة وعدم قدرتها على النبوغ في الحياة العامة والعلوم والفنون . ونتج عنه أيضاً أطفال لاتكتمل صحتهم النفسية . فقد أوضحت بعض البحوث والدراسات النفسية أن النزعات العدوانية تكمن في نفوس معظم الاطفال بسبب طغيان

شخصية الأم على حياتهم في سنوات عمرهم الأولى في الوقت الذي لايشعرون فيه بشخصية الأب .

ولاشك أن ظاهرة تعلق الطفل الشديد بأمه وكراهيته لأبيه (عقدة أوديب) إنما هي نتيجة عدم التوازن في الارتباط العاطفي بين الطفل ووالديه ، والتصاقه الشديد بأمه التي تتفرغ لتربيته ، وابتعاده عن أبيه الذي يعتقد أن تربية الاطفال انما هي مسئولية الأم . وقد بدأت بعض البلاد المتقدمة تستعين بالرجال والنساء معاً في العمل بدور حضانة الأطفال حتى ينشأ الطفل وأمامه الصورتان معاً صورة الأب وصورة الأم ، وليس من الضرورى فى هذه المجتمعات أن يكون الأب هو أبوه ذاته صاحب الحيوان المنوي الذي أخصب بيضة الأم ، كما أنه ليس من الضروري أيضاً أن تكون أمه هي صاحبة الرحم الذي حمله ، فقد يكون هذا الأب وهذه الأم أقل كفاءة من غيرهما في تربية الطفل ، وإنما من الضروري أن يقوم على تربية الطفل رجال ونساء فهموا معنى التربية الصحيحة .

إن الطفل لايختار أباه ولا أمه ، ولكنهما يفرضان عليه ، فما ذنب الطفل الذي يلده أبوان لايحسنان تربيته وتغذيته ولايمنحانه فرص التعليم والنبوغ في الحياة ؟ .

وما ذنب الطفل الذي يلده أبوان لم يوقعا عقد الزواج ؟ إن الطفل ، أى طفل ، من حقه المطلق أن يعيش ويأكل ويتعلم ويعمل دون أى اعتبار لأبويه ، هل هما متزوجان أم لا ، هل هما منفصلان أم لا ، هل هما قادران على العمل والكسب أم لا ، فالطفل المولود يجب ألا يحاسب عن كيفية مجيئه إلى الحياة لأنه لم يشترك في هذه العملية ولم

يكن له يد في أن يأتي إلى هذه الدنيا أو لايأتي . كل ما في الأمر انه وجد في هذه الحياة بغير إرادته وبغير علمه فليس من العدل ولا من المنطق أن يحاسب على شيء لم يرده ولم يعرفه ولم يشترك فيه . ان المجتمعات اللتي تفرق بين الأطفال وتعاقبهم على ماحدث قبل ولادتهم إنما هي مجتمعات بلغت أشد أنواع القسوة والظلم لأنها تصدر حكماً على أبرياء صغار لم يشتركوا في الخطيئة التي يحاكمهم عليها المجتمع وليس في مقدورهم الدفاع عن أنفسهم . ولكن هذه القسوة ليست إلا امتداداً للقسوة والظلم الواقعين على المرأة التي يتنكر لها الرجل ولايمنحها شرف الزواج منه ، وإلا فكيف يمكن للمجتمع أن يعاقب الأم غير المتزوجة ؟ كيف يمكن أن يعاقبها دون أن ينكر شرعية هذا الطفل الذي تلده ويحرمه من شرف اسم الرجل ؟

* * *

جاءتني إلى العيادة سيدة شابة في الثلاثين من عمرها . كانت تعاني من آلام والتهاب في الرحم . سألتها عن حياتها فعلمت ان أباها كان موظفاً بإحدى المصالح الحكومية . تقدم اليه أرمل في الخامسة والخمسين من عمره ، تاجر أقمشة ثري ، ويمتلك قطعة أرض . لم يتردد الأب في تزويجه لابنته وكان عمرها في ذلك الوقت ثمانية عشر عاماً . وعاشت هذه الزوجة اثنى عشر عاماً مع رجل عجوز غريب عنها . ولم تنجب منه أى أطفال . كانت العلاقة الجنسية بينها وبينه تسبب لها حالة نفسية غريبة من الاشمئزاز وتنتهي بحالة جسمية غريبة من ألم في الرحم ورغبة في القيء .

وقالت لي الزوجة في أسى : كنت أحس يادكتورة في كل ليلة انني أبيع جسدي كالمومس لهذا العجوز الغريب نظير بضع جنيهات أعطاها لأبي .

فهل يمكن أن تسمى هذه العلاقة بين هذا الزوج وزوجته علاقة شريفة ؟

هل الشرف أن يتاجر الأب في ابنته باسم الزواج ؟

هل الشرف أن يشتري العجوز بماله فتاة في عمر حفيدته ؟

هل الشرف أن تعيش فتاة صغيرة كل هذه الأعوام ضد رغبتها وضد انسانيتها وتحرم من كل متعة وكل حق حتى متعة الأمومة ؟

إذن ليس عقد الزواج هو الذي يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة شريفة . ولايكفي للمرء أن يوقع عقد الزواج ليصبح انساناً شريفاً .

إن تحويل المرأة إلى سلعة تباع وتشترى باسم الزواج نوع من البغاء المقنع بقناع من الشرعية المزيفة التي تتناقض مع جوهر الشرف ومعناه السامي . فالشرف في جوهره ضد الزيف وضد ملكية انسان لإنسان أو استغلال انسان لإنسان ، الشرف في جوهره ضد الرق والعبودية وينادي بكرامة الانسان ويبني العلاقة بين البشر على أساس من المودة والحب والارادة المتبادلة والاختيار الحر . الشرف ضد المتاجرة في الناس سواء كانوا عبيداً أو نساء وبالتالي فهو ضد الزواج الذي بني على المتاجرة وبيع المرة بالمال . الشرف في جوهره يحرم مثل هذا الزواج ويعده زواجاً غير شرعي لأنه علاقة ضد شرف الانسان

وضد كرامته وضد إرادته الحرة وضد اختياره النابع من شعوره الصادق .

* * *

ولكن كم ينسى الناس جوهر الشرف ، وكم يتجاهل المجتمع المعني الأساسي لزواج رجل بامرأة ، وبمرور الزمن يضيع هذا المعني ومضمونه الحقيقي ويتمسك الناس بالشكل ويحافظون عليه ، فيصبح الشكل بديلاً للمضمون ، ويصبح عقد الزواج أو قطعة ورق بديل الحب والارادة والكرامة والشرف . وتصبح إجراءات الزواج أشبه بإجراءات بيع العقارات أو تأجيرها ، ويخلو الزواج من مضمونه ومقوماته الانسانية ويرتكز على العلاقات التجارية .

ولعل هذا هو السبب في فشل كثير من الزيجات فشلاً علنياً بالطلاق أو فشلاً سرياً بالخيانات الزوجية المتفشية في معظم المجتمعات أو جدب العلاقة بين الزوجين وبرودها وخلوها من كل بهجة لتطفح بالمنغصات ، ويصبح نفور الزوج من زوجته أو الزوجة من زوجها شيئاً عادياً . وينتج عن ذلك أن يصبح للانسان في مثل هذه المجتمعات حياتان متناقضتان . حياة زوجية اجتماعية ظاهرية ومزيفة وحياة حقيقية سرية بعيدة عن المجتمع . ولايمكن أن ننكر مايحدثه هذا الانقسام في شخصية الانسان من انحرافات نفسية أو جسدية وفكرية ، ومايتنتج عنها من مشاكل اجتماعية ، وخلق مناخ غير صحي يتربي فيه الاطفال فينشأون بنفوس وشخصيات ضعيفة أو مريضة ، ويسيرون بطبيعة الحال في نفس الطريق الذي سار فيه آباؤهم وأمهاتهم .

* * *

إن العلاقة بين الرجل والمرأة تفقد شرفها وهدفها السامي إذا بنيت على أسس تجارية أو نفعية . وهذا هو معنى الدعارة . فالمرأة المومس هي التي تتلقى أجراً عن علاقتها بالرجل . والرجل المومس هو الذي يدفع أجراً عن علاقته بالمرأة .

ولاشك أن الرجل هو الذي يسعى إلى المرأة المومس وهو الذي يدفع لها ، أي أنه الطرف الايجابي في ممارسة الدعارة ، وبالتالي فان نصيبه من المسئولية يجب أن يكون أكبر من نصيب المرأة ، ومع ذلك فان المجتمع لايدين إلا المرأة وحدها ، ولايستخدم كلمة « مومس » إلا للنساء فقط .

وإذا كان تعريف المومس انها المرأة التي تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لأسباب تجارية ونفعية فلابد أن يسري هذا التعريف على أى امرأة تقبل العلاقة الجنسية بالرجل لأسباب تجارية ونفعية . وبهذا لاتختلف العلاقة الزوجية القائمة لمصلحة تجارية أو نفعية فى جوهرها عن الدعارة . ربما كان هناك اختلاف في الشكل من حيث توقيع عقد الزواج الشكلي ، وأن الأجر الذي تتلقاه الزوجة يختلف في طريقة دفعه عن الأجر الذى تتلقاه المومس ، لكن المضمون واحد من حيث افتقاد العلاقتين للحب الحقيقي والذي بدونه تصبح العلاقتان غير شريفتين .

وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث وجود تناسب عكسي بين عدد المشتغلين والمشتغلات بالدعارة في مجتمع ما وبين تحرر النساء في هذا المجتمع ومساواتهم بالرجال في الحقوق والواجبات . إذ كلما تحررت النساء وحصلن على المساواة انخفض عدد الذين يمارسون الدعارة .

وقد أوشكت بعض البلاد الاشتراكية المتقدمة أن تخلو تماماً من ذلك النوع من النساء الذي يطلق عليه اسم المومسات . فالمرأة في مثل هذه المجتمعات تعلمت وعملت وأصبحت تتقاضى أجراً عن عملها كالرجل ولم تعد هناك امرأة في حاجة إلى أن تعول نفسها أو أسرتها عن طريق الاتجار بالجسد .

وكم يصاب السياح المحرومون جنسياً بخيبة أمل حين يسافرون إلى بلد من هذه البلاد فلا يجدون تلك الملاهي والدور الليلية التي تعرض العلاقات الجنسية ، ويجوبون الشوارع بحثاً عن مومس واحدة فلايجدون .

وفى زيارتي لألمانيا الشرقية عام ١٩٧١ لاحظت أنه بمجرد أن تغرب الشمس يتهافت بعض الرجال العرب على مغادرة برلين الشرقية إلى برلين الغربية . والسبب معروف ، فالمرأة في برلين الشرقية تعمل كالرجل والمجتمع الاشتراكي لايتخذ من الجنس تجارة أو سلعة . أما في برلين الغربية فهناك حوانيت الجنس التي تعرض الأفلام الجنسية التجارية وهناك دور اللهو التي تنتشر في المجتمعات الرأسمالية لتستغل النساء المومسات في الاتجار بالجنس وسحب الأموال من السياح الأجانب .

وكم يظهر واضحاً وجلياً الفرق الكبير بين نظرة كل من المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي إلى المرأة . المرأة في المجتمع الاشتراكي انسان لها جسم وعقل ونفس كالرجل سواء بسواء ، أما في المجتمع الرأسمالي فهي لاتزال مجرد ذلك الجسد الذي يستغل في الخدمة بالبيت ، أو يستغل خارج البيت في الاتجار بالجنس .

وليس هذا بالغريب ، فان انجلز وماركس مؤسسي الفلسفة الاشتراكية في العالم هما أول من كشف النقاب عن مظاهر استغلال المرأة وعبوديتها وأسبابها الحقيقية الكامنة في المجتمع الرأسمالي . وقد كتبا في معظم ماصدر لهما من فلسفة وأفكار أن الرأسمالية جعلت المرأة مجرد أداة للانجاب وسلعة تباع وتشترى باسم الزواج .

وقد بدأت بعض البلاد الرأسمالية المتقدمة مثل الولايات المتحدة تدفع النساء إلى العودة إلى البيت بعد أن أصبحت حاجة الانتاج في غنى عنهن ، وفعلاً أثبتت الإحصاءات في السنوات الأخيرة أن الزوجة الأمريكية أصبحت تترك عملها وتمكث بالبيت بمجرد إنجابها الطفل الأول .

وكما يقول كارل ديجلر أن المرأة الأمريكية أصبحت تنحدر منذ سنة ١٩٢٠ ، وأصبح طموحها يقل في العمل خارج البيت ، ويقتصر اهتمامها على الزواج والإنجاب وتربية الأطفال .

وقد تزايد عدد الزوجات والأمهات غير العاملات منذ سنة ١٩٢٠ حتى بلغ ٧٠٪ من النساء عامة ، أما في المانيا الشرقية فإن ٨١,٥٪ من النساء عاملات أى ١٨,٥٪ من النساء غير عاملات . كما أن أغلب النساء الأمريكيات العاملات يشغلن وظائف صغيرة لاتحتاج إلى مهارات فنية عالية مثل أعمال الخدمة والسكرتارية والأعمال الصناعية التي لاتتطلب خبرة أو مهارة .

ويقول كارل ديجلر أن المرأة الأمريكية لا تتواجد في الاعمال الفنية والوظائف العالية إلا بنسب قليلة جداً . أن جملة عدد النساء الأمريكيات العاملات في مجال الطب والقانون والهندسة والبحث

العلمي مجتمعة لايزيد عن ٧٪ من عدد النساء العاملات حسب احصاء ١٩٥٠ وأن ٦٪ فقط من الأطباء الأمريكيين نساء ، ومن المحامين والقضاة ٤٪ فقط نساء . وعلى عكس ذلك في الاتحاد السوفييتي فإن ٧٥٪ من الأطباء السوفييت نساء .

لقد سافرت إلى الاتحاد السوفياتي في يوليو ١٩٦٩ وزرت مدنه وقراه شمالاً وجنوباً من لينينجراد إلى إليانوس إلى موسكو إلى ألمآتا إلى طشقند ، وشهدت بعيني كثرة النساء العاملات في كافة المجالات العلمية والطبية ، وأحتلال النساء لكثير من المناصب القيادية سواء في العلم أو في الحياة العامة والسياسة . وقد رأيت الشيء نفسه في زيارتي لألمانيا الشرقية . إن نسبة عدد القضاة النساء في ألمانيا الشرقية هي ٣٤٪ ، ومن أعضاء البرلمان البالغ عددهم ٥٠٠ عضو هناك ١٥٩ إمرأة ، على حين في ألمانيا الغربية ٣٤ إمرأة من ٥١٨ عضواً بالبرلمان .

ومن المعروف أن الحياة السياسية الأمريكية لانصيب للمرأة فيها إلا فيما ندر .

وتقول أليس روزى انه إذا حدث وأصيبت أم أمريكية بالطموح الطبيعي لها كإنسانة ، وأرادت أن تمارس عملاً خارج البيت فإن العلماء النفسانيين والإجتماعيين الأمريكيين ينصحونها بالبقاء في البيت مع أطفالها وقاية لهم من الضرر النفسي الذي يحدث بسبب غياب الأم ، ويسمونه الحرمان من الأمومة . أما الحرمان من الأبوة الذي هو ظاهرة شائعة وعامة حيث يعمل الأب طول النهار بعيداً عن أطفاله فلا أحد من هؤلاء الاجتماعيين أو النفسانيين يذكره ، أو ينبه ... ر٥ .

إن المجتمع الرأسمالي يدعي ويهول من الضرر النفسي الذي يمكن أن يحدث للطفل إذا خرجت أمه للعمل حتى يقيد هذه الأم بالبيت وتظل مستغلة .

وقد كشف علماء المجتمع الجدد المتقدمون عن خطأ هذه الأفكار النفسية والعلمية التي لم تكن تظهر إلا للتمويه وإخفاء الحقائق الفعلية . ويقول هؤلاء العلماء الجدد أن التاريخ البشري في عهوده الأولى قبل التاريخ وفي القرون الوسطى وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يعرف شيئاً اسمه الأمومه المتفرغة طول الوقت مثلما حدث في قرننا العشرين بالنسبة لأمهات الطبقة المتوسطة . كانت الأمهات منشغلات بأعمال أخرى غير الإلتصاق بأطفالهن طول النهار ، وكان الأطفال يشتركون في الأعمال خارج البيت وداخله ، وكانت صحتهم النفسية أفضل من صحة الأطفال النفسية فى مجتمعنا الحديث . ولم تكن الأم في تلك الأزمنة كالأم في العالم الحديث تعاني الملل والوحدة وتواجه عشر ساعات في النهار تقضيها وحدها مع أطفالها .

ولعل هذا يدلنا على سيطرة الرجل على المرأة منذ سلب منها حقها الطبيعي في الحياة كانت تتزايد وتنمو بنمو المجتمع الاستغلالي ، وتتخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة بعضها يختفي وراء ستار من التقدم المزيف والمدنية الحديثة كأن يسمح للمرأة أن تدخن وأن تعري ساقيها وفخذيها في الميني جيب ، وبعضها يكون سافراً واضحاً يكشف سيطرة الرجل على المرأة مثل مايحدث حين يدفع الرجل المرأة إلى البيت سواء بالقوة والإجبار أو بالإقناع والتمويه .

ولعل السبب الحقيقي الذي دفع معظم النساء في العالم إلى الاقتناع بالبقاء في البيت هو تلك النظريات العلمية الخاطئة التي أدعت أن المرأة حين تخرج إلى العمل وتترك أطفالها تسبب لهم ضرراً نفسياً بالغاً . وكذلك أيضاً تلك النظريات التي كانت تقنع المرأة أن تحقيق ذاتها كأنثى ليس إلا عن طريق الانجاب وتربية الأطفال .

وقد أثبتت البحوث العلمية الجديدة خطأ هذه المفاهيم جميعاً بل وكشفت عن أن الرجل استغل الأطفال ليربط المرأة بهم في البيت ، وأثبتت بحوث بورشينال روزمان أن نمو الأطفال لايتأثر بغياب الأم في العمل سواء حدث هذا الغياب في الثلاث سنين الأولى من عمر الطفل أو بعد ذلك .

وكان من نتيجة هذا التمويه أن الأم اعتقدت أن تربية الأطفال إنما هي مسئوليتها وحدها ، وحينما تفكر في العمل تشعر بالذنب لأنها قد تتسبب في ضرر أطفالها . وحينما تمتلك شيئاً من الطموح لتعمل خارج البيت يواجهها الرجل بالسؤال : والأطفال ؟ فإذا بها تصمت وتعجز عن الرد . ويمكن للمرأة الناضجة الواعية أن ترد الآن على هذا السؤال قائلة أن تفرغ الأم لأطفالها مضر لها وللأطفال ، وأن مسئولية الأبوة كمسئولية الأمومة تماماً لاتقل عنها شيئاً . ولهذا فليس على الرجل أن يسأل الأم وحدها عن الأطفال وإنما لابد أن يسأل نفسه بالمثل أيضاً .

وقد ثبت علمياً أن أفضل وسيلة لتربية الأطفال هي وسط أطفال آخرين في دار للأطفال تضم عدداً من الرجال والنساء المتخصصين في التربية الصحيحة ، وان يلي ذلك في الأفضلية هو اشتراك الأب

والأم بالتساوي في رعاية الأطفال وتقسيم الوقت بينهما بالتساوي في رعايتهم والبقاء معهم في البيت .

أن أسس التربية النفسية الحديثة هي أن يتوازن لدى الطفل رؤيته لأبيه وأمه ، وأن يتساوى عنده الاحساس بالأم والأب سواء في الرعاية أو الواجب والحنان .

لكن المجتمع الرأسمالي يحرف الحقائق العلمية ليضع أمام خروج المرأة للعمل العراقيل المادية والنفسية ، ثم يفرض عليها في النهاية إذا أصرت على العمل أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت ويلوح لها بالخطر والإثم لو اختارت العمل خارج البيت .

وقد أصبحت المرأة الواعية الآن تدرك أساليب المجتمع الاستغلالي ، وأصبحت لاتشعر بالتردد أو الحيرة أو الشعور بالذنب حين تختار لنفسها أن تعمل خارج البيت ، فقد أدركت أن هذا العمل هو حياتها وهو يقاؤها كإنسانة ، وهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذاتها ، كما أدركت معنى الأمومة الصحيحة ومسئولياتها ، ومعنى الأبوة الصحيحة ومسئولياتها .

ولاشك أن الرجل لايواجه مثل هذه المشكلة أبداً في حياته ولايخيره المجتمع بين عمله خارج البيت أو داخل البيت . ذلك أن المجتمع ينظر إلى أن الرجل غير مسئول عن كل ماهو داخل البيت من خدمات وأعمال وانما هي مسئولية المرأة وحدها .

وتواجه المرأة بالإضافة إلى ذلك مشاكل عدة بعد أن تنجح في اتخاذ قرار بالعمل خارج البيت ، فتلقى من المعوقات في المجتمع

مايحول بينها وبين ممارسة العمل الذي تختاره أو المجال الذي تحب أن تنبغ فيه ، ثم أن المشاكل الزوجية ومشاكل البيت ، تحول بينها وبين اتقان عملها والنبوغ فيه . وبهذا يضع المجتمع العراقيل أمام المرأة في كل خطوة تتخذها نحو العمل بالإضافة إلى هضم حقوقها في العمل وبتر أجزها بحيث يصل إلى نصف أجر الرجل عن نفس العمل في كثير من الأحيان .

لكن ذلك يجب الا يثبط همة المرأة واصرارها على العمل خارج البيت ، فالبيت هو مقبرة المرأة ، وهو ذلها وهوانها وعبوديتها . لأن البيت معناه أن تحرم من خبرات الحياة التي تنضجها وتحقق ذاتها كإنسانة ، كما أن البيت معناه أيضاً أنها لاتعمل ولاتحصل على ايراد وبالتالي فإنها تعيش عالة على الرجل .

ولايمكن للمرأة التي تحتاج إلى الإعانة أن تتحرر من علاقتها النفعية بالرجل ولابد لزواجها منه أن يرتكز على المصلحة الاقتصادية والاجتماعية والحماية والإعالة وغير ذلك من الأسباب التي تدرج هذه العلاقة الزوجية ضمن العلاقات التجارية حيث تدرج الدعارة أيضاً .

السيد والعبد

ان العالم الذي نعيش فيه يتميز بالسرعة الشديدة في التقدم العلمي والبطء الشديد في التقدم الانساني وهكذا تزداد الهوة بين النضج العقلي والمادي من ناحية ، وبين النضج الاجتماعي والانساني من الناحية الأخرى .

ولم تكن الحربان العالميتان السابقتان أو الحروب التي لاتزال تشتعل في مناطق متعددة من العالم وتهدد بحرب عالمية ثالثة إلا نتيجة مجتمع بشري نما عقله وعلمه وتضاءل وجدانه وإنسانيته ، مجتمع بشري يتنافس على الطمع والملكية وامتلاك أقصى مايستطيع . مجتمع غلبت فيه القيم التجارية على القيم الإنسانية وأصبحت القيمة الاجتماعية للإنسان تعتمد على مقدار ما « يملك » لا مقدار ما « يكون » .

الملكية هي سبب العدوانية والأنانية في عالمنا الراهن وهي الصخرة الكبيرة التي تقف في سبيل التقدم الإنساني . والإنسان قد يمتلك الأرض أو المباني أو أدوات الإنتاج أو أى شيء من الأشياء ، ولكن أقسى أنواع الملكية هو ملكية الإنسان للإنسان .

وقد عرفنا في التاريخ كيف أمتلك الأسياد الرقيق ، وكان العبد يباع ويشترى بالمال . وحين يشترى السيد عبداً يصبح هذا العبد

خادماً لهذا السيد بغير أجر . لايستطيع أن يترك خدمته إلا إذا أطلق السيد سراحه أو باعه في سوق الرقيق لسيد آخر . وكان من واجب العبد الطاعة المطلقة ومن حق السيد المطلق أن يفعل بهذا العبد مايشاء دون أن يحاسبه أحد ، كأن يستأصل بالمشرط خصيتي العبد فيصبح رجلا بلا ذكورة ويخدم نساء سيده دون أن يخشى السيد منه شيئاً .

ولا تختلف ملكية الرجل للمرأة كثيراً عن ملكية السيد للعبد . فالرجل يشترى المرأة بمقدم الصداق وينص عقد الزواج في أول بنوده على أن الزوجة ملك لزوجها واجبها الطاعة المطلقة . وتخدم الزوجة في بيت زوجها بغير أجر ، فإن عصيت أو تذمرت أو مرضت أو وهنت باعها الرجل بحقه المطلق في الطلاق .

وأود أن أنقل هنا نص أحد مواد قانون الزواج في مجتمعنا ، وهو نص المادة ٦٧ « لاتجب النفقة للزوجة إذا امتنعت مختارة عن تسليم نفسها بدون حق ، أو اضطرت إلى ذلك بسبب ليس من قبل الزوج . كما لاتستحق النفقة إذا حبست ولو بغير حق ، أو اعتقلت ، أو غصبت ، أو ارتدت ، أو منعها أولياؤها ، أو كانت في حالة لايمكن الانتفاع بها كزوجة » .

ولاشك أن هذا النص دليل واضح على نوع العلاقة بين الزوج والزوجة التي تشبه العلاقة بين السيد والعبد بل أن العبد كان في ظل تقاليد الرقيق يعالج إذا مرض ويتحمل سيده العلاج حتى يشفى أما الزوجة فليس لها هذا الحق . إذا مرضت ولم تستطع أن تلبي رغبة زوجها الجنسية فمن حقه أن يلفظها ويلقي بها خارج بيته وتسقط عنها النفقة وعليها أن تتجول في الشوارع أو تتسول ، أو تتحول إلى

مومس . كذلك إذا حبست هذه الزوجة ولو بغير حق أو اعتدى عليها رجل وأغتصبها فمن حق زوجها أن يطردها وتسقط عنها النفقة أيضاً .

كذلك إذا دفعت الزوجة شبابها من أجل زوجها وأطفالها ثم استهلكت أو أرهقت أو مرضت أو عجزت عن الوفاء بكل هذه الالتزامات وأصبحت في حال لايمكن الانتفاع بها كزوجة فمن حق زوجها أن يلفظها كالنواة .

ان تعبير « لايمكن الانتفاع بها كزوجة » يدل على أن العلاقة الزوجية في أساسها وجوهرها قائمة على انتفاع الرجل من المرأة واستغلاله لها استغلالاً بشعاً ، أشد بشاعة من استغلال المالك للأجير أو السيد للعبد الذي كان يتحرج من بيع العبد وهو مريض أما الزوجة فهي حين تمرض (بنص قانون الزواج) تعود إلى أهلها ليتولوا علاجها لأن زوجها غير مسئول عن هذا العلاج .

ثم ان عبارة « تسليم نفسها » تدل على نوع العلاقة بين الرجل والمرأة وأن المرأة هي التي تسلم نفسها والرجل هو الذي يتسلم هذه النفس ، وكأنها شيء من الأشياء أو بضاعة من البضائع .

وحينما تطلق المرأة بسبب أو بغير سبب فإن ثمنها ينخفض في سوق الزواج كأي سلعة ينخفض ثمنها إذا ما استعملت من قبل .

وفي بحث للدكتور سيد عويس المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن أهم العوامل التي تواجه تنظيم النسل في مجتمعنا قال ان من أهم هذه العوامل انخفاض مكانة المرأة المصرية للأسباب الآتية :

ــ حيث أن الأسرة المصرية هي أسرة أبوية وليست أسرة أموية ومن ثم فالذكور هم المسئولون . وانتساب الأبناء إلى أبيهم وليس إلى أمهم .

ــ وحيث تعد الأنثى لتكون (ست بيت) ومن ثم فأدوارها الاجتماعية خارج أسرتها محدودة للغاية . (البنت مسيرها البيت) مثل شعبي .

ــ وحيث يحرم على الانثى المصرية بعض الأعمال الخطيرة ويقتصر العمل فيها على الذكور (مثل أعمال الحاكم والمشرع ورجل الدين والقاضي والجندي ورجل الشرطة مثلاً) .

ــ وحيث يكون حق الانثى المصرية في سن معينة في أن تنتخب وتنتخب حقاً اختيارياً .

ــ وحيث تتزوج المرأة لخدمة الذكر الزوج ومفهوم الخدمة هنا يتضمن كل الأدوار التي يفترض أن تقوم بها الزوجة مثل دور العمل في البيت ودور أم الأولاد ودور العشيقة .. الخ .

ــ وحيث تنخفض مكانة الأنثى المصرية إذا تزوج زوجها بغيرها .

ــ وحيث تنخفض مكانة الأنثى المصرية إذا لم تتزوج أو « تبور » .

ــ وحيث تواجه الانثى المصرية تقلبات ويتفاوت مهرها حسب كونها « بكراً » أو « عزبة » . فإذا كانت بكراً فهي أغلى سعراً ، وإذا كانت مطلقة أو عزبة فهي أرخص سعرا ، ويا ويل الانثى البالغة التي لم تتزوج ، « بارت » فإن سعرها يكون في الحضيض .

ــ وحيث ترغم الانثى المصرية على الزواج في كثير من الأحيان .

ــ وحيث تكون الزوجة في نظر الذكر الزوج بمجرد « متاع » .

ــ وحيث تعيش الزوجة في كنف زوجها في ظل المعاملة السيئة التي لا ترقى إلى المعاملة الرشيدة . فهي تصبر على المكاره (الزواج بأخرى) وتصبر على ألوان الضيم (منها الشتم والضرب) من أجل لقمة العيش أو من أجل أن يحميها راجل .. (ظل راجل ولا ظل حيطة) مثل شعبي .

ــ وحيث تعيش الزوجة في وجل وخوف من شبح « الضرة » .

ــ وحيث تطلق الأنثى المصرية لأنها لا تنجب الذكور ، أو تطلق أحياناً لأتفه الأسباب .

ــ وحيث لايستحب اذاعة اسم الانثى المصرية إذا كانت زوجة أو أماً .

ــ وحيث ان الابن الذكر مفضل عند الأب والأم معاً .

ــ وحيث ان المرأة المصرية إذا سارت في الطريق مع أحد رجال الأسرة تسير من ورائه .

ــ وحيث يستخدم مفهوم (امرأة) (مرة) استخداماً سيئاً ، ويعتبر سباً وشتيمة إذا وجه إلى ذكر .

ــ وحيث لاتمارس الانثى المتزوجة حق الطلاق إلا إذا كانت العصمة بيدها وهذا نادر .

ــ وحيث تخطب الانثى المصرية لحسبها ونسبها .

— وحيث يحرم على الاناث المصريات في سن معينة وفي ظروف معينة الإختلاط بالذكور .

— وحيث ينظر إلى النساء على انهن ناقصات عقل ودين .

— وحيث نجد أن نسبة العاملات الماهرات من الاناث المصريات نسبة ضئيلة .

— وحيث تعمل الاناث المصريات الماهرات منهن وغير الماهرات في ظل سيطرة الذكر المصري في أغلب الأحيان . وإذا اعتبرنا أن الاناث المصريات الريفيات يعملن فانهن في ظروف بائسة يسيطر عليها الذكور كذلك .

— وحيث ترث الانثى أقل من الذكر ، ولا تمنع الأنثى الأقارب من غير المقربين من الميراث .

— وحيث ان نسبة الأمية بين الاناث نسبة مرتفعة للغاية قد تصل في بعض القرى المصرية في بعض الأحيان إلى ١٠٠٪ أو تقل عن ذلك قليلا .

* * *

وكما كان العبيد يخصون لتفرض عليهم العفة وهم يخدمون حريم السيد فقد كانت الاناث في مجتمعنا وفي كثير من المجتمعات الأخرى تجرى لهن عملية جراحية أشبه ماتكون بالاخصاء لفرض العفة عليهن .

فما أن تبلغ البنت التاسعة أو العاشرة من عمرها وقبل أن تبدأ مرحلة البلوغ تأتي تلك المرأة المسماة « بالداية » وتمسك الطفلة من

ساقيها كما تمسك الدجاجة قبل الذبح ، وتستأصل بالموسى « البظر » . وقد عرفت هذه العملية بختان البنات وكانت شائعة إلى عهد قريب في مجتمعنا ولا تزال بعض الأسر حتى الآن تحرص على ختان بناتها .

وكثيراً ما استدعيت لانقاذ حياة بعض البنات أثر هذه العملية البشعة ، فقد كانت الداية لجهلها ولاعتقادها انها إذا ما أوغلت بالموسى في لحم الفتاة واستأصلت البظر من جذوره فإن ذلك يضمن عفة الفتاة وزهدها الأكبر في الجنس ، وكان الموسى الحاد يحدث نزيفاً غزيراً وفي بعض الأحيان تفقد الفتاة حياتها قبل أن تنقذ . ولم تكن الداية تعرف شيئاً عن التعقيم بطبيعة الحال وكان الموسى القذر يسبب الالتهابات في معظم الحالات أما الصدمة النفسية لهذه العملية المهينة على الطفلة الصغيرة فقد كانت بالغة لاشك ، وتظل صورة هذه المذبحة الصغيرة راسخة في ذاكرة الطفلة مما يسبب لها في حياتها الزوجية مشاكل كثيرة أحدها ذلك البرود الجنسي الذي ينعكس على الرجل بالانحرافات الجنسية وادمان الحشيش .

وهناك مجتمعات أخرى أخصت نساءها بعمليات أخرى أكثر قسوة من عملية استئصال البظر . لقد فوجئت وأنا طبيبة حديثة التخرج سنة ١٩٥٥ حين فحصت سيدة سودانية لأول مرة فإذا جميع أعضائها التناسلية الخارجية قد استؤصلت تماماً ولم يبق مكانها إلا جرح قديم طويل تتوسطه فتحة صغيرة مستديرة لخروج الحيض . ومن الطبيعي أن مثل هذه الفتحة الصغيرة تتمزق عند ولادة أول طفل وتتعرض المرأة للنزيف الشديد أو المضاعفات الخطيرة .

وهناك في التاريخ وفي مختلف العصور والمجتمعات أمثلة عديدة متنوعة تبين لنا كيف أن المجتمع الرجالي كان يستبيح لنفسه تشويه جسم المرأة ونفسها باسم العفة . وقد عرف التاريخ « حزام العفة » وهو حزام من المعدن يغطي أعضاء المرأة التناسلية وبه ثقبان أحدهما للبول والآخر للبراز عند فتحتي البول والشرج .

ويقول « ديزموند موريس » في كتابه « القرد العاري » أن التاريخ عرف عهداً كانت أعضاء البنات التناسلية الخارجية تغلق قبل الزواج بواسطة دبابيس معدنية أو بالحياكة بالابرة والفتلة . وكتب ديزموند موريس يصف رجلاً صنع في شفرتي إمرأته الخارجيتين ثقبين أدخل فيهما قفلاً حديدياً يغلقه بالمفتاح بعد كل عملية جنسية كما يغلق دكانه .

وقد يندهش بعض الناس لهذه الحقائق التاريخية ولكني اعتقد أن دهشتهم تقل كثيراً حين يذكرون أن التاريخ عرف عهداً استباح فيه المجتمع دفن البنات وهن على قيد الحياة .

كان كل ذلك يحدث باسم العفة والأخلاق . فالمجتمع الذي يستأصل بظر البنت يعتقد أن البظر هو أكثر أعضاء المرأة احساساً بلذة الجنس وبالتالي فإن استئصال البظر يفقد المرأة الكثير من هذا الاحساس فتصبح أكثر زهداً في الجنس ويضمن الرجل عفتها . ألا تشبه هذه العملية في مضمونها وجوهرها عملية اخصاء العبيد ؟ أليس هذا دليلا على أن الرجل امتلك المرأة كما أمتلك العبد ؟ لكن امتلاك الرقيق حرم بحكم القانون أما النساء فلا تزال الأغلبية الساحقة منهن رقيقاً بحكم تقاليد الزواج والطلاق والطاعة .

وفي الوقت الذي يفرض فيه المجتمع العفة على المرأة ويعمقها ويقتل رغباتها فهو يترك الرجل حراً ، لايفرض عليه العفة ، بل يشجعه على الاستمتاع بكل رغباته فيبدل من الزوجات مايشاء ويشرد من الأطفال مايشاء ويضمن له النظام والقانون الحماية المدنية والشرعية والاخلاقية .

والويل للمرأة لو انها استجابت لاغراءات الرجل ومحاولاته غير اليائسة لايقاعها في الشرك ، وعليها أن تقمع مشاعرها وتكبتها وتقاوم مطاردة الرجل واغراءه ووعوده . وأصبحت المرأة ذاتها تتخلى عن قيمة نفسها كانسانة وعن صدق مشاعرها لتضمن الشرف الاجتماعي الظاهري . وتعلمت المرأة الزيف وعرفت كيف تعامل المجتمع كما يعاملها ، تعلمت كيف ترضي الرجل وتمارس معه الجنس دون أن تفقد عذريتها ، تعلمت كيف تبيع نفسها بعقد الزواج وتكبت حبها الحقيقي إلى الأبد أو تمارسه في الخفاء .

* * *

جاءتني إلى العيادة وهي في أزمة نفسية . فتاة في العشرين أحبها أحد أقاربها الذي كان يتردد على بيت أسرتها . شعرت نحوه بالحب ووعدها الشاب بالزواج بعد أن يعثر على شقة . وفي يوم زارها الشاب في البيت وكانت وحدها . غلبته مشاعره وحاول الاتصال بها لكنها تذكرت انهما لم يتزوجا بعد فامتنعت ، فقال لها الشاب في احتجاج أن الحب الصادق هو الذي يجب أن يجمعهما معاًبأرادتهما وليس بتصريح من المأذون وارادته واقتنعت الفتاة بكلامه وكانت تحبه بصدق فعلاً وحدث بينهما اللقاء الجنسي . واضطربت الفتاة لكن

الشاب طمأنها إلى أنه سيتزوجها . لكنه لم يتزوجها كما يحدث في كثير من مثل هذه الحالات وقال لها في النهاية انه لن يتزوج فتاة سلمت نفسها لشاب قبل الزواج وان كان هو هذا الشاب .

أصيبت الفتاة بالصدمة النفسية التي تصيب الفتيات في مثل هذه الظروف وكان من الممكن أن تفقد ثقتها في الرجال وتعاملهم بمثل ماعوملت به « الكذب والخداع » ، لكنها كانت فتاة قوية النفس والشخصية تؤمن بذاتها وتحترم مشاعرها وصدقها وساعدها على ذلك انها كانت تعمل وفي غير حاجة إلى أن يعولها رجل . وحينما تقدم اليها شاب ليتزوجها وشعرت أنها تميل اليه أفضت اليه بسرها قبل أن يتزوجها لتبدأ معه حياة أساسها الصدق والشرف . لكن الشاب لم يحترم صدقها فسرعان ماتركها . وقلت لها ألا تتنازل عن صدقها بأي ثمن وان كان هو الزواج — وعليها أن تبحث عن الرجل الذي يرتفع بفكره ومشاعره عن التقاليد الشكلية ويحترم صدقها وشخصيتها.

* * *

ان حق الرجل في اللذة الجنسية مقدس في نظر المجتمع ، ويجب أن يناله في التو واللحظة حين يطلبه . أما المرأة فواجبها المقدس أن تلبي رغبة الرجل متى شاء وليس من حقها أن تشعر باللذة ، وإذا حدث وشعرت فيجب أن تخفي هذا الشعور .

وأعضاء الرجل الجنسية في نظر المجتمع لها قيمتها واحترامها ، وكفاءة الرجل الجنسية لها قيمتها واحترامها ، أما المرأة فانها قد تعيش في برود جنسي طوال حياتها بسبب الكبت فلا يقلق المجتمع ولايهتم .

ولاتحظى أعضاء المرأة الجنسية في المجتمع بالاحترام بل لقد استعار المجتمع أسماء بعض هذه الأعضاء لتكون نعات تحقير وسباب .

وكما يحترم المجتمع أعضاء الرجل فإنه يحترم ماتفرزه هذه الأعضاء ، وينظر المجتمع إلى السائل المنوي نظرة احترام بالغة ، ويعده أكسير الحياة وخلاصتها الخالصة . ولاشك أن هذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية التي يتحد الواحد منها ببيضة المرأة ليحدث الجنين .

ورغم أن الحيوان المنوي والبيضة يتساويان في قيمتهما لتكوين الجنين إلا أن المجتمع لايساوي بينهما من حيث القيمة والأهمية والاحترام أسوة بعدم المساواة في كل مايتعلق بالرجل أو المرأة . وفي الوقت الذي يبجل فيه . المجتمع السائل المنوي ويقدسه فإنه ينظر إلى الطمث كدم فاسد ونجاسة مع أن هذا الطمث يحتوي في كل مرة على البيضة الوحيدة التي يفرزها أحد المبيضين مرة واحدة في الشهر الواحد ، كما انه ليس هناك مايسمى بالدم الفاسد لأن دم الإنسان هو دم الإنساء سواء كان في رأسه أو في كبده أو في أعضاءه التناسلية . وإذا ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الدم الذي يجري في الأوردة فليس معني ذلك انه دم فاسد ولكنه يسمى علمياً بالدم غير المؤكسد لتفرقته من الدم المؤكسد الذي يجري في الشرايين ويحتوي على نسبة أعلى من الأكسجين .

ولاشك أن الدم هو أثمن ما في جسم الإنسان ، وهو الذي يمكن أن يسمى حقاً بأكسير الحياة لأن عن طريقه يتغذى الإنسان ويتجدد وبغيره لايستطيع أن يحيا .

وبرغم أن الدم الذي قد يسيل من جرح في العنق أو الاصبع هو نفسه الدم الذي يسيل من رحم المرأة أثناء الطمث ، بالاضافة إلى احتواء الأخير على البيضة إلا أن الدم الأول يعد دماً بكل ما للدم من قيمة ، لكن دم الطمث يعد شيئاً فاسداً ونجساً . ويعتقد بعض الرجال أن مجرد مصافحتهم للمرأة الحائض يفسد طهارتهم أو وضوءهم . ويرجع الاعتقاد السائد بنجاسة المرأة أثناء الحيض إلى ارتباط الدم في المجتمعات البدائية بالكوارث والجروح وهجوم الحيوانات المفترسة والموت . كما أنه من رواسب الخوف القديم الذي كان يشعر به الرجل نحو مظاهر إخصاب المرأة .

ويفرز السائل المنوي كل يوم عدة مرات ، وفي كل مرة يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية يخصب واحد منها فقط البيضة في حالة حدوث العملية الجنسية مع المرأة وتموت بقية الملايين الأخرى . وفي غير العلاقة بالمرأة فإن هذه الملايين من الحيوانات المنوية تقذف إلى الخارج ولا تخصب شيئاً كما في حالات الاحتلام والعادة السرية وغيرهما .

وقد نشأت فكرة تخويف المراهقين الذكور من العادة السرية أو كثرة الاحتلام بسبب ارتفاع قيمة السائل المنوي في نظر المجتمع وأن فقدان هذا السائل الثمين يهلك صحة المراهق .

وقد اتضح خطأ هذه الفكرة . فإن فقدان هذا السائل بسبب العادة السرية أو الاحتلام لايحرم الجسم شيئاً هاماً ، فإن هرمون الذكورة الذي تفرزه الخصيتان والذي هو الشيء الهام لايقذف إلى الخارج مع السائل المنوي ولكنه يعود مباشرة إلى الدم . وعلى هذا فإن

فقدان السائل المنوي بسبب تكرار الاستحلام أو العادة السرية لايسبب أى ضرر للانسان ، بل انه مفيد وصحي .

وتتمثل عدم المساواة بين الرجل والمرأة بوضوح في تلك التفرقة الكبيرة بينهما بالنسبة لموضوع تحديد النسل .

أن المجتمع في جميع أنحاء العالم يحمل النساء العبء الأكبر ، ويشجعهن على ابتلاع تلك الكميات الكبيرة من حبوب منع الحمل دون أن يهتم بأثرها على صحة المرأة جسمياً أو نفسياً . كل مايهمه هو أن يجد حلاً لمشكلة الزيادة السكانية التي تهدده اقتصادياً . وقد انقضت سنوات كثيرة منذ استخدام النساء لهذه الحبوب قبل أن يكتشف العلماء انها تصيب ٣٠٪ من النساء بالاكتئاب بالاضافة إلى بعض المضاعفات العضوية أو النفسية الأخرى التي قد تحدث لعدد قليل أو كثير من النساء .

أما الرجل فإنه لايحمل من هذا العبء شيئاً أو شيئاً قليلاً في بعض الحالات . وحين يقترح أحد بأن يتساوى الرجل مع المرأة في تحمل مسئولية وعبء تحديد النسل ، وأن يبحث العلماء عن وسائل تحديد النسل لدى الرجل كما يبحثون عنها لدى المرأة ترتفع الأصوات العالية بالاحتجاج . وكم من معارضات قامت في كثير من المجتمعات ضد عملية التعقيم السطحية للرجل على حين تقابل عملية تعقيم النساء الأكثر خطورة وتعقيداً بالتشجيع أو الرضا أو على الأقل بالسكوت وعدم الاعتراض .

قيم مناقضـــة

يضع المجتمع النساء في تناقض حاد ، ففي الوقت الذى يجري لهن عمليات جسمية ونفسية ليفرض عليهن العفة ويعدم احساسهن بمتعة الجنس يطالبهن بامتاع أزواجهن وارضاء شهواتهم وقتما شاءوا وكيفما شاءوا فاذا عجزت الزوجة عن أن تلبي رغبة زوجها طلقها أو تزوج غيرها أو هجرها وخرج ليعربد خارج البيت مع المومسات أو غيرهن من النساء .

وفي الوقت الذي يبيح فيه المجتمع لأسباب تجارية واقتصادية اذاعة الأغاني الملتهبة بالشبق والتأوهات وعرض الأفلام والرقصات الجنسية المثيرة للغرائز يحرم على البنات والنساء التأثر بهذا السيل الذي لاينقطع ليل نهار من أجهزة الراديو والتليفزيون والسينما والمسارح وغيرها من وسائل اعلامية .

وإذا كان المجتمع حريصاً على العفة التي يدعيها ، وإذا كان المجتمع حريصاً على الحفاظ على القوانين الاخلاقية التي يتظاهر بالحفاظ عليها من أجل الشرف ، فكيف يفسر المجتمع تنازله عن هذه القيم الاخلاقية بإباحته عرض أجساد النساء عارية في الأفلام والرقصات ، وعرض أجساد النساء عاريات فوق المجلات المصورة وفوق اعلانات زجاجات الخمر وغيرها من الاعلانات ؟ أليس هذا دليلاً على أن

الذي يحرك المجتمع حقيقة ليست هي القيم الاخلاقية وانما هي القيم التجارية ومنطق الربح والخسارة .

وما أسهل أن يتنازل المجتمع عن قيمه الاخلاقية إذا ماتعارضت مع قيمه التجارية ، ويغض الطرف عن التهتك والانحلال الذي يشيع في الفنون الرخيصة ووسائل اللهو الفاسدة ، ولايضيره أن يكون جسد المرأة العاري هو أساس الاعلان عن البضائع من أجل الربح ، بل لقد أصبحت المجتمعات الرأسمالية تبيح الحرية الجنسية لأفرادها من الرجال والنساء من أجل تكديس رأس المال وتقوية النظام الرأسمالي الاستغلالي .

وتتحمل النساء أكثر من الرجال وزر زيف المجتمع وتدفع النساء أكثر من الرجال ثمن التعارض الذي يواجهه المجتمع بين قيمه التجارية وقيمه الاخلاقية ، والسبب في ذلك هو أن الرجل هو الذي يحتكر الحكم في المجتمع وهو الذي يصدر القرارات التجارية والاخلاقية المتعارضة .

وتعيش المرأة التناقض الاجتماعي بحدة ، فهي يجب أن تكون باردة عفيفة طاهرة لاتحس الجنس ، وهي يجب أن تكون أداة متعة وتشبع زوجها بالجنس حتى الثمالة ، وجسدها عورة يجب اخفاؤه بمقاييس الاخلاق ، وجسدها مباح ويجب تعريته بمقياس الرواج التجاري والاعلانات عن البضائع . ولا أظن أن هناك استغلالاً أشد من هذا الاستغلال ، ولا امتهاناً أشد من هذا الامتهان اللذين تعيشهما المرأة ، فهي تصبح فريسة بين قوتين متنازعتين متضاربتين ، كقطعة لحم بين فكين ضاريتين .

وكل هذا طبيعي في مجتمع فقدت فيه المرأة مكونات شخصيتها وأفرغت من انسانيتها وتحولت إلى شيء أو أداة . فهي تارة للاعلان ، وهي تارة أداة للشراء والاستهلاك ، وهي تارة أداة للامتاع وخدمة الشهوات ، وهي تارة وعاء للأطفال ، وهي تارة سلعة تباع وتشترى في سوق الزواج .

ويسري بالطبع عليها ما يسري على الأشياء ، فهي أكثر قيمة حين تكون جديدة أو « بكراً » لم تستخدم من قبل ، ويهبط ثمنها بالاستخدام السابق أو الزواج السابق وتصبح امرأة نصف عمر ، لا تجد من يتزوجها إلا رجل من ذوي العاهات أو الأمراض يعد نفسه مناسبا لها .

وتستمد الفضائل مضمونها من هذه النظرة المبتورة إلى المرأة التي خبرت الرجل والحياة لا تصبح أقل من المرأة الجاهلة الساذجة فحسب ولكنها تصبح مرفوضة كأنما الخبرة عاهة .

ولأن الرجل يشتري المرأة بالزواج لتخدمه وتكون أداة امتاعه ووعاء ينجب أطفاله فهو يختار تلك الفتاة التي تصغره في السن بأعوام كثيرة ليظل جسدها شاباً قادراً على الخدمة والانجاب طوال حياتها معه لاتدركها الشيخوخة أبداً طالما هو على قيد الحياة وأن أصبح عجوزاً في التسعين من عمره . أن رجلاً في الأربعين لايتردد في الزواج من طفلة في السادسة عشرة بل انه قد يكون في الخمسين أو الستين ويعد نفسه مناسباً لفتاة في العشرين أو أقل من ذلك أيضاً ..

والرجل يفضل الفتاة الغريرة الساذجة أو « القطة المغمضة » فلا تعرف لنفسها حقوقاً ولا تدرك لجسدها رغبات ولا تفطن إلى أن عقلها له احتياجات وطموح . وهذا طبيعي بمنطق البيع والشراء فالذي يذهب إلى السوق ليشتري عبداً أو يؤجر خادماً فإنما يختار الأكثر شباباً ليعمل كثيراً بغير كلل أو ملل ، والأقل ذكاء والأقل احتياجات ليأكل ولا يطالب لنفسه بشيء ، وبهذا يكون انتاجه أكبر مايمكن واستهلاكه أقل مايمكن ويحصل مالكه أو مستأجره من ورائه على ربح كبير .

ومن هنا نظرة الرجل إلى المرأة كجسد يجب أن يكون شاباً دائماً ، ويقل سعر المرأة كلما تقدمت في العمر . ومن هنا مفهوم المجتمع لشباب المرأة وجمالها .. شباب المرأة هو تلك السنوات التي تكون فيها قادرة على الخدمة قادرة على الانجاب ، وتبدأ من يوم ابتداء الطمث (في المتوسط يكون عمر الفتاة ١٥ عاماً تقريباً) وتنتهي بانقطاع الطمث (في المتوسط يكون عمر المرأة ٤٥ سنة تقريباً) .

وهكذا ينكمش عمر المرأة عن عمر الانسان الطبيعي ويصبح ثلاثين عاماً فقط تعيشها (هذا إذا أسعدها الحظ واستطاعت أن تنجو من المشاكل العديدة التي تتربص بها) ، فإذا ما انقطع الطمث قيل انها وصلت سن اليأس وأصبحت وكأنما انتهت حياتها .

وبالرغم من أن تكوين المرأة الجسمي والنفسي يساعدها على أن تعيش عمراً أطول من عمر الرجل في معظم الأحيان ، إلا أن المجتمع حكم على المرأة بعمر يكاد يكون نصف عمر الرجل ، ففي الوقت الذي يصل فيه الرجل في نظر المجتمع إلى قمة النضوج الانساني وقمة

الشباب (٤٠ ــ ٤٥ سنة) تصل فيه المرأة إلى سن اليأس وتصبح وهي في قمة نضوجها وشبابها واكتمال خبرتها بالحياة عجوزاً عاقراً انتهت مهمتها في الحياة وتدفن اجتماعياً وهي على قيد الحياة .

ويستمد الجمال مفهومه من هذه النظرة المحدودة إلى المرأة ، فالمرأة الجميلة هي الفتاة الصغيرة صاحبة الجسد الغض وان كان عقلها جاهلا أو مشوهاً . يحكم المجتمع على جمال المرأة بمقاييس جسمية فحسب ، ويصبح جمال المرأة مرهوناً بحجم أنفها وحجم شفتيها ونهديها وردفيها ، ويعيبها أن يزيد حجم أنفها بضع ملليمترات أو أن تقل استدارة ردفيها بضع سنتيمترات ، أما الرجل فلا شيء يعيبه إلا « جيبه » وان كان له بدل الأنف اثنان وبدل البطن كرش عال .

ويثبت الفن والأدب هذا المفهوم المحدود للجمال . وكم من أغان وأشعار وروايات ترنمت بتلك الحسناء التي يتهدل على كتفيها الناصعتين المستديرتين ، وعيونها ذات الأهداب الطويلة ، وشفتيها القرمزيتين ، ونهديها البارزين ، وخصرها الضامر ، وساقيها .. الخ . وكأنما جمال المرأة ليس إلا جمال جسدها أما عقلها وشخصيتها فلا أحد يهتم بهما .

وكما استمد الجمال مفهومه القاصر من النظرة الاجتماعية القاصرة إلى المرأة كذلك يعبر مفهوم الأنوثة عن هذه النظرة ذاتها . فالأنوثة هي الضعف والسذاجة والسلبية والاستسلام . وهي صفات كلها تتفق مع الدور الذي حدده المجتمع للمرأة وهو خدمة الرجل وارضاؤه . الأنوثة هي أن تتميز المرأة بصفات الخدم المطيعين

المستسلمين الضعفاء . أما الرجولة فهي أن يتميز الرجل بصفات الأسياد من قوة ايجابية وحزم وعقل وحكمة .

واستمد الشرف مفهومه من هذه النظرة . شرف البنت مثل عود الكبريت يولع مرة واحدة وبعدها تنتهي البنت وتلقي في صفيحة القمامة كعود الكبريت المستهلك . أما شرف الرجل فيمكن أن يولع آلاف المرات أو ملايين المرات ولايستهلك أبداً .

ولن تتغير مثل هذه المفاهيم مالم تتغير نظرة المجتمع إلى المرأة كجسد فحسب . لن تتغير هذه المفاهيم إلا بعد أن تصبح المرأة في نظر المجتمع انسانة متكاملة العناصر جسماً وعقلاً ونفساً .

حينئذ يصبح جمال المرأة هو جمال جسمها وعقلها ونفسها ، ويصبح جمال الرجل هو جمال جسمه وعقله ونفسه . ولن يكون الجمال مفروضاً على المرأة وحدها بل كل انسان رجلاً كان أو امرأة أو طفلا أو كهلا يجب أن يكون جميلا بهذا المعنى الشامل للجمال (جمال الجسم والنفس والعقل) . جمال النفس هو ذلك الجمال الذي يشع من نفس سليمة بغير عقد ، هو تعبير الصدق والحب في العينين ، هو حيوية النفس ومرحها واقبالها على الحياة . وجمال العقل هو ذلك الجمال الذي يشع من الأفكار المتقدمة التي تحقق للانسان يوماً بعد يوم مزيداً من الرقي والحب والاخاء والعدالة والمساواة .

وجمال الجسم ليس مجرد استيفاء مقاييس موضوعة وإنما هو صحة الجسم ورشاقته وخفته وقدرته على أداء وظائفه بأعلى كفاءة . القوام لايكون جميلا إلا إذا تحرك الجسم كله برشاقة وخفة من أجل هدف ورغبة صادقة . العينان الجميلتان لاتكونان جميلتين إلا بمقدار ماتعبران

عن صدق المشاعر والأفكار . الجمال هو الصدق والصدق هو الطبيعة والطبيعة هي قدرة الجسم والعقل والنفس على أداء وظائفها بأعلى كفاءة ممكنة . الساقان خلقتا لتسيرا وليس للانثناء فوق الشلتة ، والمخ خلق ليستقبل المعلومات ويستنتج منها أفكاراً جديدة وليس للجمود داخل الجمجمة حبيس الأفكار القديمة والخزعبلات . القبح هو أن يطل الكذب من العين (أى عين) وأن رسمت بمهارة فائقة بخطوط وظلال حديثة . واليد خلقت لتعمل وتبتكر ، أما اليد التي لاتعمل شيئاً سوى أن تدلك أصابعها بالكريم فهي يد عاطلة قبيحة مهما بلغت أصابعها من النعومة والبضاضة . والأعضاء التناسلية خلقت لتمارس وظيفتها الجنسية وليس لأن تخصى أو تبتر أجزاؤها . الشرف هو صدق الجسم وصدق العقل وصدق النفس في كل انسان سواء كان رجلا أو امرأة ، والأنوثة هي ايجابية المرأة في الحياة وقدرتها على استخدام جسمها وعقلها ونفسها بأعلى كفاءة والرجولة هي ايجابية الرجل في الحياة وقدرته على استخدام جسمه وعقله ونفسه بأعلى كفاءة .

وهكذا نجد أن الفروق بين الرجل والمرأة تتلاشى وتتلاشى معها الصفات والمفاهيم التي تفرق بينهما ، والتي تجعل الرجولة نقيض الأنوثة ، والأنوثة نقيض الرجولة .

الأسرة والمدنية

أن الأسرة الأبوية التي بدأت ببداية الملكية وازدهرت في العهود الاقطاعية واستمرت في العهود الرأسمالية أصبحت تمر بمرحلة دقيقة خطرة بعد أن ساعدت المدنية والتقدم الصناعي المتزايد على عزلها شيئاً فشيئاً ، وتقليل عددها وتقطيع أواصرها وصلاتها ، حتى أصبحت الأسرة حين تغلق بابها عليها تصبح وكأنما انفصلت عن الدنيا وانفصلت الدنيا عنها .

ويجمع علماء المجتمع على أن الأسرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة قد وصلت إلى مرحلة التناقض مع المجتمع ، ولعل هذا هو السبب في ذلك التفكك الذي أصاب الأسرة ، وأصبح كالظاهرة العامة في معظم هذه البلاد المتقدمة . فالزوج أما هارب أو يفكر في الهرب من زوجته ، والزوجة أما كسرت قيود الملل والوحدة والخدمة أو تفكر في كسرها ، والأبناء والبنات ضجروا من آبائهم وأمهاتهم وهربوا من البيت المنعزل البارد وتجمعوا على شكل حركات ثائرة متمردة بعضها هيبز وبعضها بيتينكس وبعضها بيتليز .. الخ ، يستعينون بالمخدرات والمنبهات على خلق المجتمع الذي يريدون .

ولاشك أن كثيراً من الناس لايدركون التغير الذي يحدث في العلاقات الاجتماعية ، لأنها تتغير ببطء . كذلك بالنسبة للعلاقات الأسرية التي تتأثر بطبيعة الحال بنظام المجتمع . ولو أننا تتبعنا تغير

المجتمع الإنساني من البدائية إلى البربرية إلى المجتمع الزراعي ثم الصناعي لأدركنا التغيرات التي حدثت في الأسرة بتغير نظام المجتمع .

ويمكن لنا أن ندرك أثر التصنيع على الأسرة التي شكلها من قبل المجتمع الزراعي إذا تتبعنا مافعلته المدنية (التي نتجت عن التصنيع والتقدم العلمي) بالمجتمع . فقد أحدثت المدنية تقسيماً في جميع الأعمال والوظائف التي كانت تتم داخل الأسرة . ان التقسيم الاقتصادى للعمل فى المجتمع المتمدين الحديث يرتكز على الفصل بين وحدات الانتاج التى تنقسم بدورها إلى عديد من الفروع والتخصصات .

وفي مجتمعنا الحديث يمكننا أن نفرق بين تخصصات وقطاعات مختلفة مثل الاقتصاد والسياسة والثقافة والشئون الاجتماعية والشئون الدينية ... الخ .

وهكذا سببت المدنية الفصل بين العلاقات التي كانت قائمة داخل الأسرة الجماعية البدائية . ولاشك أن هذا الفصل قد أتاح نوعاً من الاستقلال وانعزال كل قطاع عن الآخر ، ولم يعد من الممكن (إلا لقلة قليلة من الناس) أن تحتفظ بنظرتها الشاملة لمختلف القطاعات وأن تلمس تأثير أحدها على الآخر .

ولعل أهم نتائج هذا الفصل هي تلك التي حدثت من الفصل بين أعمال الفرد الواحد ، فالذي يعمل مثلاً في قطاع السياسة وفي قطاع الثقافة لابد وأن تكون له وظيفتان ولابد أن يقسم نفسه بين مركزيه .

وقد وقع هذا الفصل بشكل حاد واضح حين انتقلت أعمال الإنتاج خارج البيت والأسرة وانتقلت معها علاقات العمل أو العلاقات المهنية . ولم يكن هذا الفصل عضوياً فحسب لأن العلاقات داخل الأسرة تختلف كثيراً عن العلاقات في المجتمع الكبير . أن العلاقات الأسرية في أساسها علاقات شخصية وعاطفية أما العلاقات في مختلف قطاعات المجتمع فهي في أساسها علاقات نفعية غير شخصية .

وقد قسم علماء المجتمع الوظائف الأساسية الضرورية لاستمرار بقاء المجتمع إلى خمسة أقسام .

★ **أولاً ــ الوظيفة البيولوجية أو التناسل :**

ان شرطاً أساسياً لاستمرار أى مجتمع وبقائه أن يعوض موتاه بالمواليد الجديدة . وان جميع الأسر بجميع أنواعها البدائية والمتحضرة تقوم بهذه الوظيفة .

★ **ثانياً ــ الوظيفة الاقتصادية :**

ان احتياجات الحياة لابد أن تنتج وتوزع بين أفراد ذلك المجتمع .

★ **ثالثاً ــ الوظيفة السياسية :**

على كل مجتمع أن يخلق الوسائل التي بواسطتها يحقق نظاماً داخلياً وخارجياً لمواجهة الصراعات .

★ **رابعاً ــ الوظيفية لتعليمية :**

ان الأحداث والنشء والأطفال الصغار لابد أن يتدربوا ليصبحوا أعضاء عاملين يشاركون في أعمال المجتمع المختلفة .

★ **خامساً ــ الوظيفة الدينية :**

لابد أن توجد الوسائل لحل الأزمات العاطفية والاحتفاظ بالإحساس بمعنى الحياة ، وأن يوجد الانسجام بين أهداف الفرد وأهداف المجتمع .

ويقول علماء المجتمع ان هذه الوظائف كانت تتم جميعاً داخل الأسرة الزراعية قبل عهد التصنيع . كانت الأسرة كبيرة العدد يعيش فيها الأب مع أبنائه وأحفاده . كانت الأسرة تنتج وتستهلك ماتنتجه وتكفي ذاتها . وكان الأبناء يتعلمون من آبائهم ثم يعملون معهم . وكانت النساء والبنات يقومون بأعمال البيت واعداد الطعام .

كانت الأسرة وحدة سياسية بذاتها وكان رؤساء القبائل هم أصحاب السلطة وهم الذين يضعون القرارات ويحكمون سياسياً . كانت قوة الفرد تعتمد على قوة أسرته ولم يكن في إمكان فرد أسرة أن يفعل شيئاً أو تكون له قوة ما . وكان وضع المرأة أقل من وضع الرجل بعد أن أصبح الرجل هو مالك الأرض وسلب منها حقها في النسب وأصبح هو صاحب الحق في الانتاج وحرم المرأة حقها من الانتاج وترك لها حق الاستهلاك فحسب . وهكذا أصبح هو الذي يعول وهي التي تخدم .

وتطور المجتمع وعرف الصناعة . وتطورت الصناعة وحدثت المدنية وانعكس كل ذلك على الأسرة . ويقول علماء المجتمع إن هذا الثلث الأخير من القرن العشرين يشهد نوعين من الاسر هما نتاج التطور الصناعي والمدنية الحديثة . النوع الحديث جداً من الاسرة

والذي بدأ يظهر ويغزو المجتمعات المتقدمة في بعض بلاد أوربا ،وبعض أجزاء أمريكا ويسميه العلماء بالاسر الجماعية أو « الكوميون » . والنوع الثاني هو الاسرة التقليدية الشائعة في معظم أنحاء العالم ويسميها العلماء بالاسرة الوحيدة النواة ، وتتكون من الأب والأم وأولادهما فقط . أما في أسر الجماعية أو الكوميون فإن مجموعة من الناس تعيش معاً داخل هذا الكوميون يتقاسمون كل شيء بالتساوي فإذا ماحدث زواج بين رجل وامرأة فإنهما يحصلان على حجرة واحدة لهما وحين تلد الأم طفلها فهي لاتحتفظ به في حجرتها وإنما تأخذه إلى دار الأطفال المنشأة في ذلك الكوميون ، حيث يقوم على رعايته عدد من النساء والرجال المتخصصين في رعاية الأطفال . ويمكن للأم إذا أرادت أن ترضع طفلها بنفسها أن تزوره في دار الاطفال في مواعيد الرضاعة . أما إذا لم تستطع إرضاعه لنقص في لبنها أو لأى سبب آخر فهناك الرضاعة الصناعية . ويزور الأب والأم أطفالهم من حين إلى حين ليداعبوهم ويتحدثوا إليهم .

وجميع الأعمال في هذا الكوميون مفتوحة للرجال والنساء بالتساوي ، والمرأة تعمل كالرجل ولها نفس الحقوق والواجبات ولاتفقد اسمها بالزواج ولا تتحمل مسئولية تربية طفلها .

وقد أصبحت في هذا الكوميون جميع الوظائف الخاصة بالانتاج والاستهلاك خارج الاسرة . ولم يعد استهلاك الفرد يتأثر بطبقة الاسرة الاجتماعية .

وقد قام عدد من الباحثين بدراسة هذا النوع من الاسر وخرجوا من هذه الابحاث بأن كثيراً من المشاكل التي تعترض الاسرة التقليدية

قد حلت ، فقد تحرر الأب والأم من قلق وعبء مسئولية الانفاق على أطفالهما ورعايتهم ، وأصبحت العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة عاطفية خالصة وحرة لاتفسدها مطالب الابناء الاقتصادية الملحة وقلق الآباء الدائم لتأمين مستقبل أبنائهم وتعليمهم . وتحررت المرأة من مسئولية أعمال البيت والاطفال وتفرغت كالرجل للعمل خارج البيت ولم تعد مشاغل البيت والأولاد تعطلها أو تؤخر فرص نبوغها وتنمية قدراتها الفكرية . وتحرر الأبناء من سيطرة الأم والأب عليهم ، وتحرروا من الفروق الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تفصل بينهم حسب ارتفاع أو انخفاض طبقتهم وأسرهم ، وحظوا جميعاً بفرص متكافئة في النمو والتغذية والتعليم والعمل . وتوصل الباحثون إلى أن كثيراً من الأمراض النفسية والعقد التي كانت تصيب الطفل في الاسرة الصغيرة قد انتهت . فقد كان الطفل في الاسرة الصغيرة يعيش معظم وقته في عزلة موحشة بسبب الانعزال الذي أحدثه التطور الصناعي والمدنية على الاسرة وبسبب الاتجـــاه الحديث إلى الاقلال من عدد الاطفال وتحديد النسل . وفي مثل هذه الاسرة المنعزلة القليلة العدد يحرم الطفل من كثير من العلاقات الاجتماعية والانسانية الضرورية لصحته النفسية ولنمو شخصيته ونضوجها .

وقد كشفت بحوث العلماء في المجتمعات الصناعية المتقدمة أن ازدياد التطور الصناعي قد زاد من عزلة الاسرة بتكوينها الراهن ، وان المشاكل تعددت داخل الاسرة وشملت جميع أفرادها سواء كانوا آباء أو أمهات أو أبناء إلى الحد الذي جعل الاسرة في وضع يتناقض مع صالح المجتمع ويعرقل تقدمه .

وحيث أن المجتمع لابد أن يبقى ويستمر فلا يمكن للأسرة أن تبقى إلا إذا تغيرت واتخذت شكلاً آخر لايتناقض مع المجتمع .

وقد وصف أحد العلماء الحال التي وصلت اليها الاسرة في معظم بلاد أوربا وأمريكا في مجتمعنا الحديث ، فقال أن معظم الأسر تتكون من الاب والأم وطفل أو طفلين . وأن الأب في معظم الأحيان هو الذي يعمل ويغيب طول النهار عن البيت . وأن الأم في معظم الأحيان هي التي تبقى في البيت لتعد الطعام وتنظف البيت وترعى الاطفال .

وقد اتضح أن غياب الأب الطويل يترك أثره السلبي في نفسية الطفل كما أن وجود الأم الدائم يسبب للطفل كثيراً من المشاكل النفسية الأخرى منها عقدة أوديب . وقد أثبتت أبحاث الدكتور جاروسلاف كوخ في تشيكوسلوفاكيا أن قدرات الطفل تتعطل عشر أضعاف بسبب الدور الذي يلعبه كطفل أمه ولعبتها المدللة . وقد وضع الدكتور جاروسلاف في بحثه الاطفال الحديثي الولادة في بيئة معينة بعيداً عن أمهاتهم وكانت النتيجة أنهم أصبحوا قادرين على تسلق السلم في ٨ شهور فقط .

وحيث أن معظم الأسر أصبحت تحدد نسلها بحكم التطور الاقتصادى والمدنية فقد أصبح الطفل في معظم الأحيان بغير أخوة أو أخوات وافتقد بذلك كثيراً من العلاقات الضرورية لتكوين خبرته في الحياة .

وتنعكس هذه المشاكل على الطفل ووالديه وتتوتر العلاقة بين

الآباء والابناء وما أن يبلغ الابن سن الرشد حتى يفكر في الهروب من أسرته ليعيش مع من يختار .

وبالرغم من أن التطور الصناعي قد ساعد على أن تخرج المرأة إلى العمل خارج البيت وأن تسترد بحكم هذا العمل بعض حقوقها المسلوبة إلا أن الدور الذي فرضه عليها المجتمع من حيث الخدمة بالبيت وتربية الأولاد يجعلها عاجزة في كثير من الأحيان عن الجمع بين العمل خارج البيت وداخله ، وتضطر إلى البقاء بالبيت . ويقول العلماء انه ما لم يحمل المجتمع عن المرأة أعباء البيت وتربية الأولاد فلن تحظى النساء أبداً بالمساواة أو الحرية أو تكافؤ الفرص .

ولأن تربية الاطفال وتعليمهم والإنفاق عليهم هي مسئولية الاسرة الصغيرة المكونة من أب وأم فإن تحقيق المساواة والعدالة بين الاطفال وتحقيق تكافؤ الفرص بينهم لايمكن أن يحدث مهما تشدق المجتمع بهذه الشعارات . وقد قام أحد علماء المجتمع ببحث في السويد بين طلبة الجامعات فاتضح له أن ١٤٪ فقط من طلبة الجامعات ينتمون إلى الطبقة العاملة على حين أن الطبقة العاملة تمثل ٥٢٪ من الشعب السويدي . وعلى هذا فإن عدداً كبيراً من أطفال الاسر من الطبقة العاملة يحرمون من التعليم العالي بسبب عجز آبائهم عن دفع نفقات التعليم .

ويقسم العلماء العلاقات داخل الاسرة إلى ثلاثة أنواع :

★ **الزواج** : حيث تنظم قوانين علاقة الرجل بالمرأة .
★ **الابوة (والأمومة)** : حيث تنظم العلاقة بين الاجيال المتعاقبة
★ **الاخوة** : حيث تنظم علاقة الاطفال من نفس الأبوين .

ويقوم الزواج على التفرقة بين دور الجنسين في الحياة . فالرجل يعمل خارج البيت ويعول الاسرة . والمرأة تعمل داخل البيت ويعولها الرجل . وهكذا يقوم الزواج على تأكيد الفروق بين الرجل والمرأة ويثبت العلاقة بينهما من حيث العائل والمعال ، والمالك والمملوك ، والخادم والمخدوم . وتختلف قوانين الزواج والطلاق من مجتمع إلى مجتمع في تفصيلاتها ولكن جوهرها واحد ، تمتد جذوره بعيداً منذ بدء الملكية الخاصة وسلب الرجل لحق الأم الطبيعي ، ويشتد عوده في المجتمع الإقطاعي ويستمر في المجتمع الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة والاستغلال .

وكم يفاجأ المرء حين يطلع على بعض نماذج من قوانين الزواج والطلاق في مختلف المجتمعات . بعضها يبدأ بالنص على أن الزوج يملك زوجته وله حق تأديبها . وبعضها يعطي الحق للزوج أن يطلق زوجته إذا خانته ولايعطي الزوجة حق تطليق زوجها إذا خانها . وبعضها يعطي الحق للزوج أن يسلب اسم زوجته فتسمى باسمه ، ويسلب أموالها ويتصرف في أملاكها كما يشاء . وبعضها يحرم الزوجة من الارث ويفضل عليها أقارب الزوج من الرجال . وبعضها يحرم الزوجة من أطفالها إذا طلقت أو يحرمها من نفقة الزوج .. الخ ، نماذج متعددة تدل على نوع العلاقة التي يفرضها الزوج على المرأة .

أما النوع الثاني من العلاقات في الاسرة فهو الابوة والأمومة . وقد اتضح للعلماء الذين درسوا هذا النوع من العلاقة أن سلطة الأب أو الأم هي أبرز صفة لهذه العلاقة . فالعلاقة بين الأب وابنه تقوم على سلطة الأب على ابنه فهي علاقة صاحب سلطة وشخص صغير بغير سلطة . هي علاقة كبير أعلى بصغير أدنى . علاقة عائل بشخص

يحتاج إلى هذه الإعالة ولايستطيع أن يعيش بغيرها . ويقول العلماء ان مثل هذه العلاقة لابد وأن تقوم على الأوامر من قبل صاحب السلطة والطاعة للشخص الصغير . وهذا يفسر تلك المشاكل المتعددة التي تنشأ بين جيل الآباء وجيل الابناء وذلك العقاب الذي يوقعه الآباء بأبنائهم أحياناً حين يحرمونهم من الإعالة أو نفقات التعليم وذلك الصراع المستمر بين الآباء والابناء بسبب رغبة الابناء في التحرر من قبضة الآباء ، وإصرار الآباء على تشكيل أبنائهم بالشكل الذي يريدونه ووضعهم في القالب الذي وضعوا هم فيه من قبل .

وكما يقول دافيد كوبر ان نتاج التربية داخل الاسرة هو أبناء حصلوا على الطاعة ولكنهم فقدوا أنفسهم وارادتهم وشخصيتهم .

هذا بالاضافة إلى الاضرار النفسية التي ثبت انها تحدث للأطفال بسبب أمومة أمهاتهم الزائدة عن الحد . فالأم في الأسرة الصغيرة الباردة المنعزلة تعوض عن وحدتها بالتصاق شديد بطفلها وبهذا الحنان المريض تعطل الأم طفلها عن النمو والنضوج وتحرمه من وسائل تحقيق ذاته بسبب عدم قدرته عن الاستقلال عنها . وقد اتضح ان حالات الشذوذ الجنسي التي أصبحت تتزايد بين الذكور أحد أسبابها تلك الأمومة المريضة في الأسر الحديثة . فالأم تفطم طفلها عن اللبن لكنها تعجز عن فطامه نفسياً لابسبب حب الأم ولكن بسبب انانية الأم التي تشعر بالوحدة والانعزال . ويختار الابن الشذوذ الجنسي كمحاولة من جانبه ليزيد من احساسه بذاته عن طريق الاختلاف عن الآخرين . انها محاولة لينكر ان ذاته لم تنفصل عن أمه وليخفي عجزه عن هذا الانفصال . كما أنها أيضاً رغبة من الابن في ارضاء أمه وعدم اثارة غيرتها وذلك بأن يحب رجلا وليس امرأة .

أما النوع الثالث من العلاقات داخل الأسرة فهو علاقة الاخوة . وهي العلاقة الوحيدة في الأسرة التي تقوم على المساواة الحقيقية ، لأنها تتم بين أفراد متساوين في الحقوق والواجبات . لكن الاسرة في العالم الحديث أصبحت تفتقد هذه العلاقة السوية رويداً رويداً بسبب تحديد النسل والنقص الشديد في عدد الاخوة والاخوات داخل الاسرة .

ويقول العلماء أن افتقار الأسر الحديثة لهذه العلاقة هو الذي يدفع الشباب إلى البحث عنها خارج الأسرة ، وذلك عن طريق تجمعاتهم الخاصة حيث يعيشون علاقة الاخوة التي يفتقدونها في أسرهم ، وان تجمعات الهيبز وما شاكلها ما هي إلا محاولات الشباب لتعويض هذه العلاقة الأساسية التي تنقصهم داخل بيوتهم .

ويعتقد البعض أن بدء ظهور الاسرة الجدية الجماعية أو الكوميون ماهي إلا بسبب عجز الاسرة الصغيرة عن تلبية حاجات أفرادها ، وان علاقة الاخوة هي العلاقة الأساسية داخل هذه الكوميونات ، فالأطفال في دارهم يعيشون معاً ويمارسون علاقة الاخوة مع زملائهم من نفس السن . وقد ثبت أن هذه العلاقة هي التي تساعد على نمو شخصياتهم وتكسبهم خبرة بالحياة على أسس من المساواة والتبادل العادل وتلعب دوراً كبيراً في اثراء نفوسهم بالحب والاخاء وتنمية ملكاتهم على الابداع والخلق .

ان انعزال الطفل داخل أسرته الصغيرة في المجتمع الصناعي الحديث يفقر شخصيته ويحرمه من الخبرة والعلاقات الإنسانية المتعددة ، ويعلمه الأنانية والانغلاق على نفسه ، كما ان علاقته بأبيه

وأمه تقوم على الفرض لا الاختيار ، فإذا ما مني طفل بأب سكير أو أم سكيرة فلابد له أن يستسلم لهذا القدر لأنه لايستطيع أن يختار غيرهما .

ويرى بعض الباحثين ان تحرر الاطفال (في الكوميونات) من سلطة الآباء والأمهات جعلهم أسرع في النمو الجسدي والنفسي والفكري ، وان اختلاطهم بزملائهم خلصهم من الانانية والاثرة ، كما أن الآباء أيضاً تخلصوا من كثير من الأنانية التي تربت معهم داخل أسرهم ، وأصبحوا يشعرون بالحب لأطفال الغير كما يشعرون بالحب لأطفالهم . وكذلك الأطفال أصبحوا يحبون عدداً كبيراً من الناس ولايخافون الغرباء .

وقد ساعد هذا على ازدياد درجة الإنسانية في الفرد ، ولم تعد العلاقة البيولوجية أو رابطة الدم هي التي تفرض نفسها على الافراد ، ولم يعد الاخ يتحيز لأخيه خاطئاً أو مصيباً لأنه أخوه ، ولم يعد رئيس العمل يتحيز لقريبه لأنه من أسرته ، ولم يعد الأب يحنو على ابنه فحسب ويقسو على أبناء الآخرين . وحلت العلاقات الانسانية الارادية محل العلاقات البيولوجية اللاارادية ، ولم يعد هناك طفل يتحمل وزر أخطاء أبيه أو أمه ، ولم تعد هناك امرأة تخدم ورجل يسود ، فقد تخلص الزواج من مفهوم النفعية وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على أساس من تبادل الحب الحقيقي .

ويقول هؤلاء العلماء أن هذه الاسرة الجماعية الجديدة بالرغم من بعض المشاكل التي تواجهها إلا أنها استطاعت أن تتخلص من ذلك التناقض الحاد القائم بين مصلحة الفرد داخل الأسرة الصغيرة وبين

مصلحة المجتمع الكبير . ان الانانية التي تفرضها الاسرة على الأب والأم وأطفالهما تعزلهم عن المجتمع وتضعف امكانياتهم في الاحساس بمشاكل الآخرين .

ان الأب في أكثر المجتمعات تقدماً في العالم الحديث يستطيع أن يمر بعربته الفارهة بجوار طفل راقد على الرصيف فلا يكاد يشعر بأي ألم أو احساس يدفعه إلى التوقف لحظة ، ويعود إلى بيته حيث يطبع قبلة الرضا والسعادة على وجه ابنه الراقد في راحة ونعيم تحت أثمن البطاطين .

ما هو الحب

يمكن القول الآن أن « الحب » الذي يحدث بين الرجال والنساء في عالمنا الحديث أو الذي كان يحدث في المجتمعات السابقة منذ أن أمتلك الرجل الأرض وأمتلك معها المرأة ليس هو الحب . فالحب لايمكن أن يحدث بين سيد وعبد أو بين صاحب سلطة وخاضع للسلطة ، أو بين أقوى وأضعف ، أو بين أعلى وأدنى .

الحب لايمكن أن يحدث من أجل الانتفاع والنفعية ، ولايمكن أن يحدث من أجل الاستغلال ، أو من أجل المصلحة الاقتصادية أو الحماية الاجتماعية . أن علاقة الحب ليست علاقة تجارية ، ولايمكن أن يشتريها الانسان بماله أو عقاراته أو سطوته .

لكن الذي حدث في التاريخ هو تلك النكسة الانسانية التي جعلت جنساً يسود على الجنس الآخر وفقدت العلاقة بين الرجال والنساء تكافؤها الطبيعي بحكم أنهم جميعاً من البشر وان المرأة انسانة كالرجال لها جسم وعقل ونفس .

وبفقدان هذا التكافؤ لم يعد من الممكن أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة بسبب الحب الحقيقي وانما لأسباب أخرى متعددة .

ان شرطاً من شروط الحب هو التكافؤ . ومعنى التكافؤ هو أن يكون المحبان متكافئين . إذا كان أحدهما انساناً له جسم ونفس وعقل

فلابد أن يكون الانسان الآخر انساناً له جسم ونفس وعقل . ولايمكن للحب أن يحدث بين انسان متكامل العناصر وبين آخر ليس له إلا جسد فحسب . لأن الحب هنا يفقد شرط وجوده وهو التبادل . التبادل الجسمي والنفسي والعقلي .

لكن المجتمع استأصل من المرأة عقلها ونفسها فلم يعد في امكان الرجل أن يتبادل معها الحب . كل ما كان يمكن أن يحدث بينهما هو نوع من الاتصال الجنسي ، ليس هو الحب بأى حال من الأحوال ، وانما هو تلك الحركات الجنسية اللاارادية التي تدفع الذكر إلى الانثى من أجل الاخصاب والمحافظة على النوع في جميع الكائنات الحية ابتداء من الديدان والحشرات إلى الزواحف والثدييات .

ولكن الانسان يتميز عن الحيوانات والحشرات بقدرته على استخدام عقله ونفسه بطريقة ارادية واعية ، وتختلف العلاقة الجنسية في الانسان عنها في سائر الحيوانات لما حظى به الانسان من تلك الصفات العقلية والنفسية . أن هذه الصفات هي التي تؤهله للاختيار والحرية والمسئولية .

ويقول العالم وادمنجتن : « الانسان كائن يتميز بالوعي والارادة وهو مسئول عن أفعاله . هذه المسؤولية هي أرقى صفة يملكها الانسان . أن أى مزيد من الارتقاء هو ارتقاء بهذا المعني . وهذا هو سبب ذلك الارتباط الوثيق بين حياتنا الجنسية وهذا الارتقاء . أن الجنس ليس هو عملية انجاب الأطفال فحسب ولكه في الحقيقة عملية نتجت من عمليات التطور والارتقاء التي حدثت للكائنات الأدنى

وهي تواصل بذكاء عملية تطورها وارتقائها داخل الكائن فتنقله دائماً إلى كائن أكثر رقياً » .

ومعنى هذا أن الغرض من علاقتنا الجنسية هو احداث عملية النمو والارتقاء ودفعها إلى الأمام ، هو خلق مزيد من الأصالة والحرية والمسئولية للانسان وقد خلقت الطبيعة الرغبة الجنسية لتكون أداة لهذا الغرض العظيم ، وهذا هو سبب تأثيرها القوي في الانسان ، وكم يكون هذا التأثير مدمراً للانسان إذا انحرفت هذه الرغبة عن مسارها الطبيعي بسبب الكبت وضغوط المجتمع .

الجنس اذن ليس رغبة الجسم وحده ، ولكن رغبة الجسم والعقل والنفس . ولهذا لايمكن لنا أن نفسر الجنس بيولوجيا فنقول انه ضروري للتناسل ، أو نفسره فسيولوجياً فنقول انه بسبب التغيرات التي تحدث في نسب الهرمونات في الدم . ان الجنس أكبر بكثير من هذه التفسيرات العملية المحدودة ، والتناسل ليس إلا أحد وظائف الجنس المتعددة الشاملة لجميع مكونات الإنسان . التناسل وظيفة الجهاز التناسلي في الإنسان أما الجنس فهو وظيفة أجهزة الإنسان جميعاً جسماً ونفساً وعقلاً .

الجنس عمل انساني يرتبط بكيان الانسان لا من أجل التناسل وإنما من أجل النمو الروحي في الإنسان . وكما قال « برديف » في كتابه « مصير الإنسان » : « ان معنى اتحاد الرجل والمرأة ليس بسبب استمرار النوع ولكن بسبب نمو شخصية الانسان ورغبته الجامحة لبلوغ الكمال والخلود » . ويقول بيتر فليتشر : « البحث عن الحب إنما هو بحث لمعرفة الذات ورغبتنا في الحب هي رغبتنا لأن يعترف بنا

لا من أجل ما (نفعل) ولكن من أجل ما (نكون) . الحب قد يحتوى على عاطفة ولكنه ليس عاطفة وقد يحتوي على اعجاب ولكنه ليس اعجاباً . انه مايتبقى بعد أن ترضى الرغبة وتنفق العاطفة ، ذلك الاحتياج لأن يرى المرء حقيقته في حقيقة شخص آخر » .

ان مضمون معظم الأديان التي ظهرت في تاريخ البشرية هو أن الله هو الحب . الحب هو إله الحياة في الإنسان ويقابله نقيضه وهو إله الموت . الحب يبني ويثري الإنسان والحياة ، ونقيض الحب يفقر ويهدم الإنسان والحياة .

حين يولد الطفل لايعرف كيف يفرق بين نفسه والعالم الخارجي . انه يرى نفسه والعالم الخارجي شيئاً واحداً ، ولهذا فهو يحب الأشياء من حوله كما يحب نفسه . يحب نور الشمعة كما يحب يده ، فإذا ما لمست يده نور الشمعة وشعر بالألم أدرك من خلال الألم أن الشمعة ليست جزءاً من نفسه . ويتعرف الطفل شيئاً فشيئاً على نفسه ، وكلما عرفها وأحبها أحب مايشبهها . الطفل يحب الدمية أو العروسة لأنها تشبهه . وقد بدأت الحياة الانسانية حين أحب آدم حواء وأحبت حواء آدم . لقد وجد كل منهما في الآخر شبيهاً له أقرب إليه من سائر الحيوانات الأخرى .

وتقول جيرمان جرير أن التشابه دعامة الحب وليس الاختلاف . وقد فهم الرجل خطأ انه يحب المرأة لأنها تختلف عنه ، وبسبب تضخيم المجتمع للفروق بين الرجل والمرأة فقد أصبح الرجل يفضل الجلوس والسهر مع صديقه عن امرأته . انه يجد في الرجل انساناً

شبيهاً له ، له جسم وعقل ونفس ، أما المرأة فإنه يجد جسمها فقط ، فكأنما قد أصبحت من فصيلة أخرى غير فصيلته .

وهذا أمر طبيعي فالحب يقوم على التبادل ، والتبادل لايمكن أن يحدث بين كائن من فصيلة أعلى وآخر من فصيلة أدنى . التبادل لايمكن أن يحدث بين شخصين غير متساويين أو غير متكافئين . ان عدم التساوي أو عدم التكافؤ يجعل أحدهما في وضع أقوى . وتصبح العلاقة بينهما علاقة بين قوي وضعيف أو بين أعلى وأدنى . ومن هنا لايحدث التساوي المطلوب في التبادل لأن الأقوى بحكم وضعه سيستغل الأضعف ، ولأن الأضعف بحكم ضعفه سيحتاج إلى حماية الأقوى ويتنازل عن بعض حقوقه من أجل هذه الحماية .

والحب لايمكن أن يقوم على علاقة يشوبها استغلال ، أو يشوبها احتياج للحماية من أى نوع . الحب لايقوم لأن الإنسان يريد أن يأكل ويشرب أو يتناسل . الحب لايقوم لأن الإنسان يريد أن يحصل على حماية أو وصاية . الحب ليس هروباً من مشاكل الحياة ، وليس رغبة في الحصول على المأوى أو الأمان أو الضمان الاجتماعي . الحب ليس تبادلاً للمنفعة ، وليس بحثاً عن الراحة في الحياة أو التكيف المريح معها . الحب ليس هروباً من وحدة أو ملل أو فشل .

والحب ليس امتلاكاً ، وليس سيطرة ، وليس شعوراً من طرف واحد مهما كان هذا الشعور .

ان هذا الحب الذي تطفح به الأغاني الملتهبة الملأى بالنواح والعويل ليس حباً ، وليس حباً ذلك الذي ساد في أدب القرن التاسع عشر والعشرين حيث القصص الملأى بعذابات الحب من طرف

ان هذه الصفات التي شاعت عن الحب من حيث انه أعمى وانه مجنون وانه قدر يحل بالانسان من أول نظرة كالسهم القاتل فيصبح أسيراً له فاقد الارادة ، فاقد الوعي ، فاقد البصر ، هذه الصفات ليست صفات الحب .

فالحب ليس سهم كيوبيد ينطلق ويصيب الإنسان ، ليس الحب مرضاً ، وليس انهياراً مؤقتاً ، وليس حالة من الطغيان العاطفي . الحب ليس جنوناً ، والحب ليس أعمى .

ان هذا الحب المريض كان نتيجة طبيعية للوضع الذي وضعت فيه المرأة منذ سلبها المجتمع عقلها ونفسها واعتبرها جسما فقط. ان صفات الإنسان النفسية والعقلية هي التي تميزه عن سائر الحيوانات الأخرى ، وهذه الصفات هي التي تمنحه القدرة على الاختيار والوعي والارادة ، فإذا ما فقدها فقد القدرة على الاختيار والوعي والإرادة .

وبرغم ان المجتمع لم يسلب من الرجل ماسلبه من المرأة إلا أن الحب المتكامل لايمكن أن يحدث من طرف واحد ، ولايمكن للرجل أن يتبادل صفاته النفسية والعقلية مع فراغ . وهكذا عجزت صفات الرجل النفسية والعقلية عن ممارسة التبادل الضروري لنموها وازدهارها ، وتعطلت شأنها شأن صفات المرأة النفسية والعقلية . ولم يبق أمام الرجل والمرأة إلا جسماهما . والرغبة الجسمية (المجردة عن الرغبة النفسية والعقلية) رغبة محمومة لا ارادية ، تعتمد على ذلك الانجذاب اللاارادى الذي يحدث بين المواد بسبب تغيراتها الكيمائية والفيزيويوكيمائية .

هذا الانجذاب العشوائي الذي يحدث بين كتلة وكتلة ، انجذاب بلا وعي ، وبلا ارادة ، وبلا اختيار وبلا مسئولية .

وما أبعد هذا الانجذاب الأعمى عن علاقة الحب الانسانية الحقيقية . فالحب عند الإنسان عملية واعية ترتكز في أساسها على الاختيار الحر والإرادة .

الحب أرقى عملية يمارسها الإنسان لأنه من خلالها تستطيع مكوناته الجسمية والنفسية والعقلية جميعاً أن تمارس أعلى وظائفها وأعمقها تغلغلاً فى كيان الإنسان. الحب عملية واعية فاهمة عميقة بل لعلها العملية الوحيدة التي يستطيع الانسان من خلالها أن يصل إلى أعمق أعماق شخصيته .

ومن الحقائق العلمية ان الكائن الحي حين يفقد جزءاً من أجزائه فإنه يعوض عن فقدان هذا الجزء بتضخيم الأجزاء الأخرى . وهذا هو ماحدث عند الانسان . ان هذا التضخيم الذي حدث للعلاقة الجسمية بين الرجل والمرأة لم يكن إلا للتعويض عن فقدان العلاقة النفسية والعقلية بينهما . ان هذا التضخيم للانجذاب الجسدي بين الرجل والمرأة لم يكن إلا بسبب فقدان الانجذاب النفسي والعقلي . فالحب يقع من أول نظرة حين تقع عينا الرجل على المرأة ويرى شفتيها الممتلئتين المتوردتين ، ونهديها البارزين ، وردفيها المكتنزتين .وأغاني الحب وقصص الحب كلها تتغنى بجمال الشفتين والساقين والنهدين والخصر والردفين .

وهذا هو السبب وراء تفشي علاقات الحب المريضة سواء في الأدب أو الفن أو حياة الناس الواقعية . والأصل في ذلك يرجع إلى

اليوم الذي انقسم فيه الناس إلى نوعين . نوع أعلى ويستحق السيادة والحكم وهم الرجال ، ونوع أدنى ويستحق التبعية والخضوع والطاعة وهم النساء .

وتعرضت المرأة لجميع أشكال الضغوط والقيود بسبب القوانين التي وضعها الرجل الحاكم . ومن المعروف أن الحكام يضعون القوانين لتسري على المحكومين فحسب وليس على الحكام .

واضطرت المرأة ازاء هذه الضغوط والقيود المفروضة عليها بالقوة ان تكبت رغباتها الطبيعية . ويقول علم النفس ان الكبت ينتج عن الخوف بسبب القوة الضاغطة وليس بسبب الخطر الذي يمكن أن يحدث .

ويضطر الإنسان أمام هذه القوة التي يخافها أن يلغي نفسه . فالكبت اذن هو الغاء النفس أمام الآخرين ، هو أن يفرغ الإنسان نفسه من نفسه ويملأها برغبات الغير ، لأنه في عملية الخضوع والطاعة تخلص من شخصيته وتخلص معها من خوفه .

هذا هو ماحدث للمرأة . لقد ألغت نفسها أمام الرجل . لقد تخلصت من شخصيتها لتحصل على الخضوع والطاعة وتحصل معها على الحماية والأمن ورضا الرجل .

انها عملية وقائية تلجأ اليها كل الكائنات الحية في مواجهة القوى المحيطة بها والتي يمكن أن تهددها أو تخيفها . ان الانسحاب من أمام القوة وسيلة من وسائل المقاومة عند جميع الكائنات الحية ابتداء من الاميبا إلى الإنسان . وان الاغماء الذي يحدث للانسان أحياناً حين يستشعر الخطر ماهو إلا محاولة لالغاء النفس أمام هذه القوة .

وكذلك التماوت أو التظاهر بالموت الذي تجيده بعض الحيوانات حين تواجه قوى أكبر منها .

فى قمة الصراع واليأس يتجاوب الإنسان بالاغماء ، أو الشلل، أو عدم الاحساس ، أو أية طريقة أخرى للانكماش المؤقت . انه تخدير في الحواس لتفادي الصراع واليأس .

هذا التخدير في الحواس قد لايكون نفسيا أو عقلياً فحسب ، ولكنه قد يكون جسمياً وعضوياً أيضاً . أن عضواً من أعضاء الجسم قد يفقد احساسه تماماً ويصاب بالشلل .

وقد قاومت المرأة الكبت المفروض عليها منذ طفولتها وطوال مراحل عمرها بالانكماش وتخدير الحواس . وأصبحت حواس المرأة مخدرة باردة يصعب اثارتها .

ويصف علم النفس كيف يقاوم الإنسان الكبت والمراحل التي يمر بها حتى يصل إلى مرحلة البرود وتخدير الحواس . فمنذ أن تتولد رغبة ما في الانسان تحدث تغيرات داخل الإنسان تولد الطاقة اللازمة لتحقيق هذه الرغبة عن طريق الفعل . فإذا لم يحدث الفعل وكبتت الرغبة حدث في الإنسان ضغط كضغط البخار محدثاً أحاسيس جسمية ونفسية سميت في علم النفس بالعاطفة .

ويصف العلماء ثلاث مراحل يمر بها الإنسان حين تثار عاطفته ، أي حين يشعر برغبة ما ثم لايحقق هذه الرغبة بالفعل .

١ ــ **مرحلة حدوث المؤثر** : وتبدأ بتولد الرغبة في الإنسان بسبب مؤثر ما وتصاحبها تغيرات جسمية مثل زيادة النبض وسرعة تنفس .

٢ ــ **مرحلة المقاومة** : وفيها يستعد كل عضو في الإنسان للعمل وفق هذا المؤثر وهي مرحلة بناء تثري الإنسان وتقويه وتجدد نشاطه . ولهذا فإن غياب كل التحديات ليس صحيحاً ، ولابد للانسان من أن يواجه تحديات وصعوبات ليقاومها . فإذا ما انتصر عليها فاز بالنضوج .

أما إذا كانت هذه التحديات أكثر قوة منه فانتصرت عليه فإنه يدخل إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الارهاق .

٣ ــ **مرحلة الارهاق** : ويصبح فيها الإنسان أقل حساسية لهذه الضغوط والمؤثرات الاجتماعية . يصبح جلده أقل حرارة ، ويصبح ذكاؤه أقل . أى أنه ينطوي على نفسه لا ليبتعد عن هذه المؤثرات فحسب ولكن ليبتعد عن الحياة ذاتها . وتزيد عملية الهدم داخله عن عملية البناء . انها مرحلة هدم اذن يقتل فيها الإنسان نفسه شيئاً فشيئاً .

وهذا هو مايحدث للمرأة . انها تقاوم ثم تنهزم وتستسلم لمصيرها بعد أن تمر بمرحلة ارهاق تتركها باردة الجسم والنفس والعقل . وهذا هو السبب في أن المرأة لاتثار جنسياً في معظم الأحيان إلا إذا ضربها الرجل أو شد شعرها أو قرصها أو عضها . أن هذه الرغبة في استشعار الألم ماهى إلا رغبة في احداث درجة أعلى من الانفعال للتغلب على التخدير الذي حدث في الحواس .

الكبت اذن هو السبب وراء ماسوشية المرأة وسادية الرجل . ومن هذا الكبت نبع الحب المريض والأدب المريض الذي يتغنى بالآلام والحرمان والعذابات والتأوهات .

الاحب الحقيقي لايقوم على الحرمان وانما شرط من شروط الحب هو التبادل والارتواء . ان الحرمان هو « عدم الفعل » أو الكبت ، وهو دمار لشخصية الإنسان ، أما الحب فهو « عدم الكبت » هو أن نتصرف ونتخذ قراراً بأنفسنا وعلى مسئوليتنا . والفعل هنا يثري أنفسنا بصرف النظر عن نجاحه أو فشله لأنه فعل حقيقي صدر عن الشخص ذاته وليس رد فعل للآخرين .

الفعل شرط من شروط الحب الحقيقي . أما الحب الرومانتيكي فهو حب مريض بغير فعل . هو حب محروم يتغذى بالحرمان ويعيش على ردود الفعل .

لم يكن أمام المرأة المكبوتة الا أن تضحي بالفعل وتصبح حياتها رداً لفعل الرجل . فالرجل هو الذي يفعل والمرأة تنتظر فعل الرجل وجميع التعبيرات الجنسية تصف الرجل دائماً بأنه الفاعل ، وهو الغازي ، وهو الفاتح ، وهو المقتحم ، أما المرأة فهي المفعول به .

الفعل شرط من شروط النمو النفسي والعقلي ونضوج الإنسان واستقلاله . فالذي لايفعل لايتعلم ، والذي يتعلم لاينضج ، والذي لاينضج لايستقل .

ان معنى الاستقلال هو أن يتخذ الإنسان قراراً بنفسه ويتصرف على مسئوليته وحده وهذا هو الفعل . أما رد الفعل فهو أن ينتظر الإنسان قراراً لآخرين فيتصرف وفق قرارهم وعلى مسئوليتهم . ان الإنسان الضعيف غير المستقل غير الناضج هو الذي يتحرك بردود فعل الآخرين . انه يخاف المسئولية ويفضل عليها راحة الطاعة والخضوع .

والانسان انسان بقدر ما لديه من قدرة على الحرية والارادة والاختيار والمسئولية . والحب بين انسان وانسان يصبح حباً انسانياً بقدر مالديهما من قدرة على الحرية والارادة والاختيار والمسئولية .

لكن المرأة كانت عاجزة بحكم قيود المجتمع أن تحظى بشرف المسئولية . فرض الرجل على المرأة وصايته وحمايته وأصبح مسئولا عنها . فالأب مسئول عن ابنته والأخ مسئول عن أخته والزوج مسئول عن زوجته بل ان الابن الذكر يكون مسئولاً عن أمه .

شهدت بعيني رأسي منذ أيام مشادة وقعت بين شاب وأمه التي ربته والتي تبلغ من العمر الخامسة والأربعين . كانت الأم ترتدي ملابسها استعداداً للخروج فإذ بالابن يمنعها قائلاً انه مسئول أمام المجتمع عن تصرفاتها .

والزواج في جوهره وقوانينه يجعل الرجل مسئولا عن زوجته ، مسئولاً عن اعالتها ، مسئولا عن تصرفاتها ، مسئولا عن خروجها ودخولها بحيث ينص على أن الزوجة حين تخرج من لبيت يجب أن تحصل على اذن زوجها وحين تسافر أن تحصل على موافقة كتابية من زوجها وإلا منعت من السفر .

ان افراغ المرأة من مسئوليتها افراغ لشخصيتها من لب الانسان وجوهره وتميزه عن سائر المخلوقات ، وبهذا الافراغ لم يعد للمرأة إلا قشرتها الخارجية الظاهرية أمام الأعين ، لم يعد للمرأة إلا غلافها الجسدي الخارجي .

ولم يعد أمامها إلا أن تنشغل بهذا الغلاف الجسدي ، فهي تدلكه وهي تنعمه ، وهي تزيل الشعر من فوقه كلما نما ، وهي تعريه تارة

وتخفيه تارة ، وهي تنفق عليه كل مايقع تحت يدها من مال وكل ماتجد عندها من وقت .

ويؤكد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة . فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج إلى تدليك بأنواع خاصة من الكريم ، وكرموش تحتاج إلى تقوية وتغذية ، وكشفاه تحتاج إلى طلاء بلون الورد ، وكشعر يحتاج صبغات تتناسب مع لون الفستان وهكذا .

والرجل حين يلتقي بها يفرغ في مهبلها سائله المنوي فيضيع توتره البيولوجي الناتج عن ضغط هذا السائل على أعضائه ، ويشعر براحة تشبه تلك التي يشعر بها حين يفرغ مثانته من البول ، وكما يشيح بوجهه عن الوعاء الذي بال فيه كذلك يشيح بوجهه عن المرأة التي اتصل بها جنسياً ويعطيها ظهره ، وأحياناً يبصق بالقرب منها أو بعيداً عنها حسب مستواه الاجتماعي .

ويعجز الرجل بطبيعة الحال عن حب المرأة ، لأنه يرى نفسه انساناً ، أما هي فلايراها إلا وعاء . فالقدرة على الحب تعتمد على قدرة الانسان على ادراك حرية الشخص الآخر وحقيقته واحترامها . حين يكف الشخص الواحد عن التصرف وفق رغبته فحسب ويدرك الشخص الآخر ويحترمه ويعترف به . وهذا يفرق علاقة الإنسان بالأشياء وعلاقته بالإنسان الآخر الذي ليس شيئاً وانما انسان مثله تماماً .

هذا التماثل هو أصل الحب . لأن التبادل لايمكن أن يحدث بغير التماثل . أن الفروق الضخمة التي وضعها المجتمع بين الرجل والمرأة

جعلهما غير متماثلين فلم يعد في الامكان حدوث التبادل بينهما ، وأصبحت العلاقة أخذاً من طرف وعطاء من الطرف الآخر .

وتعلم الرجل الأنانية . تعود على أن يأخذ فحسب . تعود على أن رغبته هي التي تحركه فحسب أما رغبة المرأة فهو لايعرف عنها شيئاً ولايتصور وجودها . أن معظم الأزواج لايمارسون العلاقة الجنسية مع زوجاتهم إلا حين يرغبون هم ، وحين يريدون هم ، وبالطريقة التي يريدون ، وبصرف النظر عن رغبة الزوجة أو استعدادها لذلك . وأن قانون الزواج يفرض على الزوجة أن تلبي رغبة زوجها في أى وقت من الليل أو النهار حسب مشيئته ورغبته ، فإذا ماعجزت لتعب أو مرض اعتبرت في حال لايمكن الانتفاع بها كزوجة ويحق لزوجها أن يتركها ويسقط حقها في النفقة .

ان الأنانية هي الصفة الأولى لعلاقة الرجل بالمرأة . وما هذه الغيرة التي يشعر بها الرجل على امرأته إلا بسبب الأنانية وليست بسبب الحب . فالمرأة تصبح ضمن ممتلكات الرجل مثل سيارته أو دراجته أو حماره . انه يخاف عليها أن تسرق منه ، وحقده على السارق أكثر من حقده على الشيء المسروق . ومن هنا تلك المشاهد التي رأيناها كثيراً في الحياة الواقعية وفي الفن والأدب وعلى الشاشة حين يضبط الرجل رجلاً يغازل زوجته أو حبيبته فإذا به يشمر أكمامه ليضربه أو يستل سيفه ويبارز الرجل على حين تقف المرأة تتفرج على القتال .

وازاء أنانية الرجل كانت هناك تضحية المرأة . فالمرأة تضحي وتعطي ، وتسلم نفسها ، وتستسلم ، وكل هذه التعبيرات التي تصف علاقة المرأة بالرجل .

وكما لايقوم الحب على الأنانية ، كذلك لايقوم الحب على التضحية . فالمرأة التي تقول للرجل انها ضحت بنفسها من أجله امرأة لاتشعر بالحب . فالحب ليس تضحية بالنفس وليس نكراناً للذات . ان نكران المرأةلذاتها أنانية مقنعة . فهي تضحي بنفسها لسبب واحد هو أنها لم تكن تملك هذه النفس . فهي تضحي بشيء لاتملكه .

والإنسان الذي فقد ذاته أو نفسه لايستطيع أن يحب . فالحب توكيد لثقة الإنسان في ذاته ، وامتداد لحبه لنفسه ليحب سائر البشر . والمرأة من خلال ضغوط المجتمع والكبت فقدت ذاتها وفقدت ثقتها في نفسها . ولعل أكبر دليل على عدم ثقة المرأة بنفسها هو تلك المساحيق الكثيرة التى تحاول بها اخفاء حقيقتها وتلك الطبقة السميكة من الطلاء التي تتنكر تحتها . لقد فقدت المرأة ثقتها في نفسها إلى الحد الذي أصبحت فيه عاجزة عن أن تواجه الناس بوجهها الحقيقي . ومن النادر أن نجد امرأة على قدر من الشجاعة والثقة بالنفس إلى الحد الذي تخرج به من بيتها بوجه مغسول نظيف بغير مساحيق .

ان تشدق المرأة بكلمات التضحية في الحب ليس إلا نوعاً من التجارة . انها شخصية غير مستقلة وفي حاجة إلى حماية ومن أجل أن تكسب حماية الرجل فهي تدعي أنها تعطيه نفسها ، والحقيقة انها فقدت هذه النفس منذ زمن طويل حين قبلت سيادة الرجل ووصايته وتنازلت عن حقها الطبيعي في تحمل المسئولية وفي الارادة والحرية .

ولكن ما من طريق آخر تجده المرأة أمامها . ان الزواج الذي

تسعى اليه لتحتمي في رجل لايمثل لها بر الأمان . فهي في ظل الزواج مهددة دائماً بأن يتركها الرجل بسبب أو بغير بسبب . وهي بغير رجل لاتستطيع أن تعيش . انها في حاجة دائماً إلى الرجل ليعولها أو ليحميها اجتماعياً ، أو نفسياً ، أو جسدياً . وشتان بين هذه الحاجة والحاجة إلى الحب الحقيقي . فالحب هو تلك الحاجة التي يشعر بها الإنسان المستقل بعد أن يشبع كل ضروريات الحياة . أما المرأة فهي تحتاج إلى الرجل لأنها بغيره لاتستطيع أن تشبع ضروريات حياتها .

وهذا يفسر لنا كثيراً من الظواهر التي نراها في الزواج أو في علاقة الرجل بالمرأة . فالزوجة تسعى بكل ما أوتيت من جهد أن تربط زوجها بها حتى لايتركها بسهولة . فهي تخدمه وتطيعه وتلبي كل رغباته . انها تدعي البلاهة والغباء أحياناً لتصدق أكاذيبه وتفاهات غروره . انها ترضي غروره . وتوهمه انه الرجل الوحيد على الأرض . انها تربطه بالبيت بوسائل مختلفة ، متعددة ، مرة تستخدم الأطفال وتلد له منهم أكبر عدد ، ومرة تستخدم غريزة حب الطعام فتصنع له كل يوم طبقاً جديداً ، ومرة تستخدم الغريزة الجنسية فتتفنن في اغرائه وفي اثارته .

تفعل ذلك كل يوم ، وكل ليلة بغير كلل أو ملل . انها تعلم أن التكرار يصنع العادة ، وأن العادة حين تتمكن من الانسان تسيطر عليه فلا يتخلى عنها .

أن الزواج الذي يستمر ونسميه زواجاً ناجحاً ، لم ينجح بسبب الحب وانما بسبب العادة . والزوج هنا كالمدمن الذي يسوقه ادمانه كل يوم إلى زوجته . انه قد يكرهها وقد يملها وقد يود في أعماقه لو تخلص منها لكن قدميه تسوقانه إلى داره كل يوم بحكم العادة .

والحب ليس عادة ، وليس ادماناً ، وليس عملا لا ارادياً ، وليس عملاً غير واع . الحب عملية ارادية واعية تتم بسبب قدرة الإنسان على الاختيار الحر . هذه القدرة لاتكون إلا في إنسان مستقل .

ان الاستقلال شرط من شروط نضوج الشخصية ، ونضوج الشخصية شرط من شروط تحقيق الذات ، وتحقيق الذات شرط من شروط الحب .

وهكذا ندرك أن القدرة على الحب هي أعلى قدرات الانسان وأنضجها وأكثرها وعياً . وليس هناك من تعبير عن حاجة الانسان إلى الكمال أبلغ من الحب . فالحب ينشأ عند الانسان بعد أن يلبي كل احتياجاته . الحب جوع يشعر به الانسان بعد أن يشبع كل رغباته وغرائزه . هذا الحب قادر على تحريك كل ملكات الانسان في الخيال والابتكار وتفجير كل طاقاته الجسمية والنفسية والعقلية .

والحياة الخالية من الحب هي حياة ناقصة مهما كانت الانجازات التي يحققها مثل هذا الشخص في أى ميدان من ميادين النشاط . فالحب هو تحقيق الذات ولايستطيع الانسان أن يخدم غرضاً أسمى من تحقيق ذاته ، أو ان الانسان لايستطيع بدون تحقيق ذاته أن يدرك من تحقيق الأغراض الأخرى شيئاً .

وإذا كان مفهوم « التسامي » قد كشف ، وانه ليس هناك ماهو أسمى من الجنس بمعناه الصحيح فى حياة الانسان ، وان الشرف ليس هو نكران الجنس والاعراض عنه ولكن الشرف هو الصدق ، صدق الانسان المتكامل جسداً ونفساً وعقلا . الشرف هو صدق الجسد وصدق النفس وصدق العقل .

وإذا كان الحب ينبع من ارادة الانسان وحريته واستقلاله وإذا كانت الحضارة تعرف بأنها قدرة الانسان على السيطرة على حوافزه وغرائزه فإن الانسان يصبح أكثر تقدماً حين يصبح أقوى ارادة وبالتالي حين يتحرر من ارادات الغير والضغوط الاجتماعية التي تفرض عليه .

ولايمكن للارادة أن تنمو وتشتد إلا بالتدريب والممارسة شأنها شأن عضلات الجسم تقوى بالتدريب الرياضي المستمر وممارسة الحركات الضرورية للنمو الدائم منذ الطفولة .

ان مكونات الانسان الجسمية والنفسية والعقلية تنمو وتتطور منذ الطفولة حتى نهاية العمر . ويتوقف هذا النمو والتطور على مقدار الخبرات والتجارب التي يمارسها الانسان منذ لحظة ولادته حتى لحظة مماته .

كما أن أجهزة الجسم المختلفة لاتقوى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع النشاط الجسمي كذلك فإن النفس لاتقوى إلا بالتدريب والممارسة الفعلية لمختلف أنواع نشاطها ، وكذلك العقل ، وكذلك جميع أجهزة الانسان وأحدها الجهاز التناسلي .

ولايعني هذا القول أن الخبرة بالجنس لا تكتسب إلا بتعدد العمليات الجنسية مع أكبر عدد من الأشخاص . فإن الرجل الذي يطلق عليه اسم « الدون جوان » أو « زير نساء » أقل الرجال خبرة بالجنس بمعناه الصحيح وبالتالي فهو أكثرهم فشلا في علاقاته مع النساء ، وهذا الفشل هو السبب الحقيقي وراء انتقاله من امرأة إلى امرأة .

ان الجنس ليس حركات جنسية تؤدى، وليس هروباً من فشل ما أو تعويضاً عن نقص ما . الجنس هو التقاء شخصيتين متكاملتين لقاء حراً ، فإذا ماخبر انسان ما (رجلاً كان أو امرأة) هذا الجنس فإن هذه التجربة تصبح في حياته خبرة انسانية حقيقية تثري حياته وتساعد على ازدهار شخصيته وتزيد من قدراته على التفكير الحر والابتكار .

ان النضوج الانساني يحدث حين تتراكم لدى المرء الخبرات بالحياة والناس . ولايمكن لانسان أن ينضج وتكتمل شخصيته إذا ما عاش وحيداً منعزلاً عن الناس والمجتمع . وقد حرمت معظم نساء العالم من النضوج بسبب انغلاقهن داخل البيوت وحرمانهن من الخبرات الضرورية للحرية واكتمال الشخصية . وبالاضافة إلى هذا الحرمان فإن ضغوط المجتمع الأخلاقية جعلت المرأة تكبت رغبتها الجنسية وتكبت معها أيضاً الرغبة في الحرية الشخصية بصفة عامة . فالرغبة الجنسية ليست رغبة جسمية فحسب ولكنها رغبة نفسية للحب والحرية .

ان الشخصية الناضجة هي وحدها التي تستطيع أن ترغب الحرية وتسعى إليها دون أن تخشاها ، فالحرية تخيف الانسان غير الناضج غير المستقل ، ومن خوفه منها فإنه يفضل عليها العبودية وأمن التوافق الاجتماعي .

وهذا هو ماحدث للمرأة . لقد حرمها المجتمع من نضوج الشخصية والاستقلال وبالتالي عجزت عن أن ترغب الحرية .

ان عزل المرأة داخل البيت حرمها من الخبرة والوعي ، وأصبحت المرأة تجهل الحياة وتجهل الرجل وتجهل نفسها .

والجهل هنا لايعني غياب المعلومات ، ولكنه يعني أيضاً وجود المعلومات الخاطئة والخزعبلات التي ملأت رأس المرأة بسبب تقاليد المجتمع المختلفة .

فما أجهل تلك المرأة التي تتصور أن دمها أثناء الطمس نجاسة ، وما أجهل تلك المرأة التي تتصور أن قطع بظرها ضروري لتصبح طاهرة نظيفة .

والجهل الذي فرض على المرأة فرض بطبيعة الحال على الرجل ، لأن الرجل هو الذي خلق هذه الاشاعات والمعلومات الخاطئة عن المرأة وهو الذي روجها لصالح سيادته وسيطرته .

ويهبط جهل الرجل والمرأة بالعلاقة بينهما إلى درجات دنيا تزيد بزيادة ذلك الجهل . ولايمكن للعلاقة بينهما أن ترقى إلى مستوى الحب ما لم يقضيا معاً على جهلهما . والقضاء على ذلك يستلزم أول مايستلزم أن تعود العلاقة بين الرجل والمرأة إلى طبيعتها الأولى بحيث لاتكون هناك سيادة لأحد على أحد .

التمويـــه

ولاشك أن خروج المرأة من بين جدران البيت إلى العمل هو الحجر الأساس الذي يبنى عليه استرداد المرأة لحقوقها الطبيعية كانسانة .

لكن هذا العمل ينبغي ألا يكون نوعاً من الاستغلال الجديد للمرأة ، ويجب ألا يكون تحت سيطرة الرجل كما يحدث في الريف حيث تعمل الفلاحات في الحقل والبيت تحت سيادة الرجل وفي ظل القوانين الجائرة التي تهضم حقوق المرأة .

ان خروج المرأة للعمل تحت سيطرة الرجل وفي ظل القوانين الحالية لايعني إلا مزيداً من الاستغلال للمرأة ، كما يحدث الآن للمرأة العاملة التي أصبحت تعمل خارج البيت وداخله والتي يسبب لها الارهاق الجسدي والنفسي كثيراً من الأمراض والمشاكل تحول بينها وبين الحياة الصحية السليمة ولا أقول التحرر أو الحرية التي تنشدها .

ان الطريق أمام المرأة صعب وشاق يحتاج إلى كفاح طويل ، كفاح واع تدرك فيه المرأة الأسباب الحقيقية التي تحول بينها وبين الحرية والمسئولية ، ولاتخدعها تلك الحركات المتمردة التي تقوم بها

بعض النساء من حين إلى حين في مختلف أنحاء العالم للتحرر في ظل المفاهيم القديمة وفي ظل سيادة الرجل .

ان مثل هذه الحركات غير الواعية لاتفيد إلا أن تمد الصحافة من حين إلى حين بمادة مثيرة طريفة ، تجني من ورائها توزيعاً أكثر ربحاً .

وعلى المرأة الا تنخدع بتلك المعلومات الخاطئة والاحصاءات التي تستغلها بعض الحركات التي تقاوم التقدم .

فمن الطبيعي أن المجتمعات الرأسمالية في مختلف أنحاء العالم لاتسلم بغير مقاومة ، ولاتعطي الحقوق إلى من سلبت منهم الحقوق وعلى قمتهم النساء بغير مقاومة . وتختلف أساليب المقاومة وأسلحتها من مجتمع إلى مجتمع . ومن وقت إلى وقت . مرة تستخدم سلاح الدين وتستغل تغلغله في نفوس بعض المجتمعات ، ومرة تستخدم سلاح القيم الأخلاقية وتستغل عدم ادراك الناس بأن هذه القيم من صنع المجتمع ذاته ، ومرة تستخدم بعض الاحصاءات والأرقام لتثبت للناس ان المرأة العاملة أقل انتاجاً من الرجل وبالتالي تنادي بعودة النساء إلى البيوت انقاذاً للاقتصاد من الأنهيار . ومرة تستغل بعض البحوث العلمية القاصرة لتثبت أن المرأة لاتصلح إلا لأعمال التمريض والسكرتارية والتدريس والخدمة ، وبذلك تحول بين المرأة وبين المناصب العليا والأعمال الهامة في المجتمع .

ومرة تستخدم علماء النفس من تلاميذه وأتباع فرويد الذين دعموا النظام الرأسمالي بالنظريات النفسية الخاطئة . ويسعى هؤلاء بنظرياتهم التقليدية المتخلفة أو نظرياتهم الجديدة التي ترتكز على نفس

المفاهيم القديمة إلى أن يجهضوا أى ثورة تقوم بها النساء ، أو يقوم بها الزنوج أو الشباب أو العمال وغيرهم من الفئات المغبونة من الشعب .

ويحاول هؤلاء الفرويديون التقليديون أو تلامذتهم ممن يسمون أنفسهم بالفرويديين الجدد إلى تفسير ثورات الشباب أو الزنوج أو النساء بسبب خلل داخل نفسية الإنسان الثائر وليس بسبب خلل في النظام الاجتماعي القائم . وليس هذا إلا امتداداً لنظرة فرويد إلى التمرد على السلطة على أنه نتيجة لعقدة أوديب ، حيث تمثل السلطة شخص الأب أمام الإنسان المتمرد . ويحاول الفرويديون الجدد أن يعبروا عن نفس هذا المفهوم وانما بأسلوب آخر فيقولون أن التمرد على السلطة ليس إلا تعبيراً خارجياً عن عدم مقدرة الإنسان المتمرد على علاج صراعاته الانفعالية الباطنية في اللاشعور .

ويكتب هربرت هندين (أحد تلامذة فرويد المؤمنين بالتحليل النفسي) عن الشباب الثائر ضد سياسة نيكسون فيقول في نيويورك تايمز (١٧ يناير سنة ١٩٧١) :

« ان هؤلاء الشباب الراديكاليين يعانون من اهمال أسرهم لهم التي أصابتهم بخيبة الأمل في تحقيق ماتحتاج إليه شخصياتهم والتي تمعن في تجاهلهم كأشخاص وأفراد مستقلة من البشر » .

وقد كانت الحركات الثورية للعمال والشباب والنساء والزنوج التي ظهرت مع بداية الأزمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينات والمستمرة حتى اليوم سبباً في تعديل الأفكار الفرويدية الكلاسيكية لتتمشى مع الواقع الجديد ، بعد أن عجزت نظرية التحليل النفسي القائمة على

غريزة الجنس والموجهة للسلوك عن أن تسوق التبريرات المقنعة لهذه الحركات الثورية .

كما ان علم الأجناس في السنوات الأخيرة توصل إلى نتائج وشواهد كبيرة أثبتت زيف بعض الافتراضات المبدئية لفرويد ومنها غريزتا الجنس والموت ، ومراحل الجنسية الطفلية وعقدة أوديب . وانتهى روبرت سيرز (نيويورك ١٩٤٢) إلى أن التحليل النفسي ليس علماً حقيقياً بالقياس إلى معايير العلوم الطبيعية .

وأصبحت مهمة الفرويديين الجدد ومنهم اريك فروم وهربرت ماركيوز مساعدة المجتمع الرأسمالي في عمل الاصلاحات لأفكار فرويد الكلاسيكية بحيث تلائم العصر ، وبحيث تمتص ثورات الشباب والعمال والنساء والزنوج .

ان الرأسماليين يقاومون أى ثورة أو تمرد ضدهم بجميع الوسائل الممكنة ، وأحد هذه الوسائل هي تقديم أفكارهم الاستغلالية في أثواب متنوعة الألوان وتحت عناوين مختلفة الأشكال توحي للناس انها تغيرات على حين انها لم تتغير .

وهناك محاولات علمية خادعة يقوم بها الفرويذيون الجدد لمزج المبادىء الاشتراكية بالمبادىء الفرويدية ، ومن هؤلاء فروم وماركيوز ورايخ . انهم يحرفون الحقائق التي تفسر الفكر والانفعال والسلوك الانساني ، ويدعون ان ثورات الشباب والنساء والزنوج ليست إلا صراعات داخل الإنسان أو في اللاشعور .

وكما يقول جوزيف رينولدز : « وماذا يمكن أن يسعد الطبقة الحاكمة أكثر من اقناع الناس بأن مشاكلهم ليست إلا نتاج

الصراعات اللاشعورية داخل أنفسهم ؟ أو ان تاريخ الانسان — بحروبه وتفرقته العنصرية واضطهاده — ناتج عن القوى اللاشعورية للتدمير والليبدو والكبت الجنسي ، وليس ناتجاً عن عمل الرأسمالية ؟!

ان علماء النفس الرأسماليين يدفعون الانسان إلى البحث عن مشكلاته داخل نفسه ، وبهذا يقل وعيه فلا يشترك في الكفاح مع الآخرين ضد الأسباب الحقيقية .

ولقد شوهت نظرية فرويد عن التحليل النفسي وأفكارها عن السلوك القهري اللاشعوري كفاح الشباب والنساء والعمال والزنوج من أجل تحقيق العدالة والمساواة بين البشر .

ولابد لكل امرأة أن تدرك أن نظرية فرويد للتحليل النفسي الصقت بالمرأة كل صفات النقص الممكنة مثل الهستيريا والماسوشية والسلوك الطفلي والسلبية والغيرة وعدم الاحساس بالمسئولية . ويجب أن تدرك المرأة أيضاً أن تلامذة فرويد وأتباعه والفرويديين الجدد يبقون على هذه الأفكار المتخلفة عن المرأة ، وانهم يروجونها للاقلال من قيمة أى حركة ثورية تقوم بها النساء . ولهذا فإن جميع حركات تحرير المرأة الواعية ترفض جميع الأفكار الفرويدية القديم منها والجديد .

وتدرك المرأة الناضجة الواعية أن ثورة الانسان ليست بسبب صراعات داخلية في اللاشعور ولكنها بسبب صراعات خارجية في المجتمع الاستغلالي ، وأن النشاط الاجتماعي للفرد هو العامل الأساسي في تكوين نفسيته ، وأن الأبوين والأسرة والمدرسة والشارع والعمل والصراعات الاجتماعية كلها تلعب دوراً هاماً في تكوين الانفعالات

والمواقف والسلوك وشخصية الإنسان . وحيث أن وعي الانسان انعكاس للواقع الاجتماعي فإنه يلعب الدور الرئيسي في تشكيل سلوك الانسان . تدرك المرأة الواعية ان الانسان ليس كائناً عصابياً عاجزاً وعبداً لغرائزه كما يريد له فرويد وعلماء التحليل النفسي ، ولكنه انسان له قدرة على الارادة والاختيار الحر وتغيير العالم من حوله من خلال قدراته الثورية الخلاقة ، وأنه قادر أيضاً على تغيير نفسه وتطويرها دائماً إلى الأفضل والأرقى .

ويعتبر الدين من أقوى الأسلحة التي يستخدمها المجتمع الرأسمالي لمقاومة حركات التمرد والثورة التي تقوم بها الفئات المضطهدة من الشعب وبالذات النساء ، لشدة الارتباط بين القيم الدينية والقيم الاخلاقية التي تحكم النساء فحسب .

ولاشك أن تلك الموجة الدينية التي أصبحت تجتاح في السنوات الأخيرة بعض المجتمعات الرأسمالية المتقدمة مثل أمريكا وانجلترا ليست إلا إحدى وسائل المقاومة يستخدمها المجتمع الرأسمالى لمقاومة التقدم .

في زيارتي الأخيرة لانجلترا في أواخر عام ١٩٧١ لاحظت زيادة اهتمام الدولة بالدين والأخلاق ، وقالت لي الأستاذة فانيسا فينتون وهي إحدى الباحثات في مجال تنظيم الأسرة ان الجهل بالجنس ظاهرة عامة في بريطانيا وأن هذا الجهل يؤدي إلى مشاكل كثيرة أقلها تلك الزيادة في نسبة المصابين بالأمراض التناسلية ، ومع ذلك فإن الحكام وأعضاء البرلمان ورجال الكنيسة والمسئولين عن التعليم يعارضون فكرة تدريس الجنس بحجة المحافظة على الدين والأخلاق .

وفي الأيام القليلة التي عشتها في لندن في شهر سبتمبر من ذلك العام قرأت في الصحف أكثر من مرة عن تلك الحركات التي تسمي نفسها بالحركات الاخلاقية والتي يقودها رجال من عتاة المجتمع الرأسمالي ، ومن حين إلى حين تخرج إلى شوارع لندن وميادينها الرئيسية مجموعات من الناس يحملون لافتات تنادي بالعودة إلى حظيرة الدين والأخلاق .

وتمتد هذه الموجة إلى كثير من المجتمعات الرأسمالية الأخرى ، وقد نشأ في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة عدد من الجمعيات الدينية والاخلاقية تدعو الناس إلى تعاليم الكنيسة والمحافظة على التقاليد ، وتهاجم التحرر أو ماتسميه بالانحلال الأخلاقي .

وقد لاحظت هذه الجمعيات ان اكتشاف حبوب منع الحمل قد لعب دوراً في سبيل مساواة النساء بالرجال واسترداد المرأة لبعض حقوقها الضائعة فبدأت هذه الجمعيات تهاجم حبوب منع الحمل بحجة أن نسبة الاصابة بالأمراض التناسلية كالزهري والسيلان ارتفعت في السنوات الأخيرة في هذه البلاد . وارجعت هذه الجمعيات هذا الارتفاع إلى حبوب منع الحمل التي ساعدت على الحرية الجنسية وانهيار الخلق .

وتضع مثل هذه الجمعيات على واجهتها لافتة اسمها التسلح الأخلاقي لتخفي وجهها الحقيقي الذي يحاول أن يشد الناس إلى الوراء ليبقى المجتمع الرأسمالي قوياً راسخاً .

وتستغل هذه الجمعيات جهل الناس بكثير من الحقائق العلمية . فإن زيادة الاصابة بالأمراض التناسلية في أى مجتمع ليس بسبب الحرية

التي منحتها حبوب منع الحمل للنساء ، ولكن بسبب الجهل بالجنس الذي يتفشى في جميع أنحاء العالم دون استثناء . وهناك مجتمعات شرقية لم تسمح بدخول حبوب منع الحمل اليها (لأسباب أو معتقدات دينية) ومع ذلك فإن نسبة الاصابة بالأمراض التناسلية فيها تزيد عن أى نسبة في أى بلد من البلاد التي تستخدم حبوب منع الحمل .

لكن التاريخ يزخر بمثل هذه الجمعيات السياسية والنفعية التي ترتدي ثوباً أخلاقيكا أو دينياً . وتحاول أن تعكس الحقائق وتشكك الناس فيما تريد أن تشككهم فيه مستغلة تعاطف الناس مع كل من يتكلم باسم الأخلاق أو الدين .

وإذا كانت جمعية التسلح الخلقي في أمريكا مثلاً جمعية أخلاقية حقاً أو جمعية مبادىء ودين حقاً فلماذا لاتدعو باسم الخلق والدين إلى وقف الحرب في فيتنام ، أو إلى مساواة الزنجي بالأبيض ؟ لماذا تقتصر دعوتها على محاربة التمرد في نفس الانسان ، وإلى العودة إلى الصلاة وتعاليم الكنيسة وطاعة الرب . لماذا تحاول اقناع الناس بأن الانهيار الأخلاقي الذى يهدد العالم ليس إلا بسبب تمرد الانسان وعدم قناعته بما أعطاه الرب ، ولعلها تتصور أن الرب هنا هو المجتمع الرأسمالي .

ولاشك أن هذه الجمعيات هي التي تعمل ضد الأخلاق وضد الدين الحقيقي ، لأنها تقف ضد المساواة بين البشر ، وضد العدالة ، وضد السلام ، بوقوفها مع الذين يؤيدون الحرب والذين ينادون بالتفرقة العنصرية ، وبمعاداتها للحركات التحررية التي يقوم بها الزنوج والنساء ، وتسميها حركات تمرد وعصيان الرب .

أما حبوب منع الحمل (وغيرها من وسائل منع الحمل) فقد لعبت دوراً كبيراً في التخفيف من حدة الجهل الجنسي المتفشي في العالم ، وذلك عن طريق توضيحها بعض الشيء لمعنى الجنس الصحيح بفصلها بين عملية التناسل البيولوجية والعملية الجنسية .

ان استخدام وسائل منع الحمل في معظم البلاد الآن يرقى بالعملية الجنسية من وظيفة بيولوجية إلى مستوى العمل الانساني الناضج ، ويستبدل عملية تناسلية عشوائية تسيطر على الانسان بعملية أخرى انسانية يسيطر عليها الانسان بإرادته واختياره الواعي . وهذا هو المفهوم الصحيح لمعنى الجنس .

ان ادانة حبوب منع الحمل أو ادانة الحرية سواء كانت جنسية أم غير جنسية ، أو ادانة ثورات الشباب أو النساء ، ليست إلا تغطية على المجرم الحقيقي ألا وهو نظام المجتمع الرأسمالي ، الذي لايسوي بين الناس ، المجتمع الذي يحترم الآلة أكثر من الانسان ، المجتمع الذي يفرق بين الرجل والمرأة ، بين صاحب العمل والأجير ، بين زنجي وأبيض ، المجتمع الذي يقتل الملايين في حرب الطمع والاستغلال ، المجتمع الذي يقتص من الأطفال لأخطاء الكبار ، المجتمع الذي يحترم عقداً من ورق أكثر من احترامه لشعور الانسان وإرادته ، المجتمع الذي يقبل الزيف في حجرات النوم كما يقبله في حجرات الاجتماعات .

على المرأة ألا تنخدع بمثل هذه الحركات ، وعليها أن تواصل كفاحها من أجل الحرية والمسئولية ، وعليها أن تدرك أن واجبها الأساسي في الحياة ليس هو الانجاب وليس هو الخدمة بالبيت ، وأن

واجبها الأساسي في الحياة هو المشاركة في تغيير المجتمع إلى الأفضل والسعي لرقي الانسان .

فالرقي الانساني هو قدرة الانسان المضطردة على أداء وظائف في الحياة تزيد على وظائفه البيولوجية والتي يشاركه في القدرة على أدائها جميع الكائنات الحية بما فيها وحيدات الخلية وأقل أشكال الحياة تطوراً .

خطوات على الطريق

والسؤال الذي لابد أن يسأل الآن هو كيف يحدث التغيير ؟ كيف يمكن أن نصحح الأخطاء ، كيف يمكن أن نقضي على الجهل ، كيف يمكن أن تتغير الظروف الاجتماعية التي تحكم على المرأة بالكبت والتناقض الذي تعيش فيه . كيف يمكن القضاء على استغلال الرجل للمرأة في العلاقة الزوجية .

وقد اتضح مما سبق أن تحرير المرأة لايمكن أن يحدث في مجتمع رأسمالي ، وأن مساواة المرأة بالرجل لايمكن أن تحدث في مجتمع يفرق بين فرد وفرد ، وبين طبقة وطبقة . ولهذا فإن أول ما يجب أن تدركه المرة أن تحريرها انما هو جزء من تحرير المجتمع كله من النظام الرأسمالي وقيمه التجارية والأخلاقية وان كفاحها من أجل التخلص من قيم الرأسمالية وتقاليدها ونظمها هو الكفاح المجدي .

وعلى المرأة أن تدرك أيضاً ان الاشتراكية بمعناها الحقيقي من حيث العدالة والمساواة بين البشر لاتكون واقعاً بمجرد اعلان الشعارات الاشتراكية ، أو اصدار القوانين الاشتراكية . أن تغيير القوانين ضروري ، ولكنه لايكفي لاحداث التغيير ، فكم من قوانين تظل حبراً على ورق .

ان احداث التغيير يقتضي جهوداً شاقة طويلة في جميع مجالات الحياة على اختلافها وتنوعها .

ولاشك أن من العوامل الهامة في احداث التغيير هو التربية . تربية جديدة ترتكز على المساواة الكاملة بين المرأة والرجل في جميع مراحل العمر منذ الولادة حتى الممات ، مساواة في الحقوق والواجبات خارج البيت وداخله وفى تربية الأطفال .

ومعنى ذلك أن البنت حين تولد يجب ألا تشعر بفرق بينها وبين أخيها أو بينها وبين الأطفال الذكور سواء في البيت أو في المدرسة أو في الشارع . وتتلقى البنت التربية التي تنمي نفسها وعقلها وجسمها وتعدها للعمل في المجتمع والمشاركة في مختلف مجالات الحياة ، ويتلقى الولد التربية نفسها . وتفهم البنت منذ طفولتها أن دورها في الحياة لايختلف عن دور الذكر . وأن كليهما يجب أن يعد اعداداً صحيحاً لممارسة هذا الدور . وتحظى بالثقة والحرية ولاتخوف من الجنس ويصبح دور الأم والأب المساعدة على أن تفهم البنت مشاعرها ورغباتها وأن تمر بجميع المراحل اللازمة لنضوج شخصيتها . ويكون اهتمام الأم والأب بتفوق البنت الدراسي مساوياً لاهتمامهما بتفوق الولد الدراسي . ويكون اهتمام الأم والأب بملابس البنت ومظهرها مساوياً لاهتمامهما بملابس الولد ومظهره . وإذا أظهرت البنت ميلاً إلى الجرأة والإقدام وقوة الشخصية أكثر من أخيها فلا ينظر اليها على أنها مسترجلة أو شاذة ، وأن البنت يجب أن تكون هادئة وادعة مستبسلمة رقيقة ، ولاينظر إلى أخيها على أنه هو الذي يجب أن يكون الأقوى والأشجع والأكثر إقداماً . يجب أن تنمى صفات البنت الطبيعية وتحصل شخصيتها على كل الفرص للنمو دون أن تفرض عليها صفات معينة يجب أن تتحلى بها البنت لمجرد أنها بنت . قد تتفوق البنت على الولد في الذكاء أو في قوة الشخصية وقد تقل عنه ،

المهم هو أن يحظى كل طفل (ولداً كان أو بنتاً) بجميع الفرص التي تظهر نبوغه أو قوته في أى مجال من المجالات .

كذلك يجب ألا يطلق على الولد الوديع الخجول الهادىء انه بنت أو ضعيف الشخصية . فلكل طفل شخصيته واستعداده ، وقد ينبغ هذا الطفل الخجول فيما بعد في أعمال فنية تناسب شخصيته وتكوينه . كذلك يجب ألا يطلق على البنت الجريئة غير الخجول انها ولد . فهذه البنت قد تصبح فيما بعد نابغة في الأعمال القيادية والسياسية وغيرها من المجالات التي تناسب شخصيتها .

والتربية ليستِ بالكلام فحسب وانما بالعمل والنموذج . لابد أن يشعر الأطفال أن أمهم مساوية لأبيهم في الحقوق والواجبات . وانها تخرج إلى العمل مثله وتشترك معه في الانفاق على البيت . وانه يشترك معها في تربية الأطفال واطعامهم وترتيب البيت .

ولابد للبنت أن تقوم بنفس المسئوليات والأعمال التي يقوم بها أخوها الولد . فهي تذهب إلى المدرسة مثله ، وتذاكر مثله ، وهي لاتتحمل مسئوليات أو أعمال منزلية لايتحملها هو . إذا كان النظام في البيت يستدعي أن يرتب كل فرد سريره فيجب أن يرتب الولد سريره كما تفعل أخته . ويجب أن يساعد الولد في اعداد المائدة إذا كانت أخته تساعد في اعداد المائدة ... وهكذا لايشعر أحدهما أن هناك أعمالاً معينة يجب أن يؤديها لمجرد انه ذكر أو أنثى .

وليس معنى ذلك أن تهمل الميول الخاصة والاستعدادات الخاصة . مثلاً إذا أظهرت البنت ميلا إلى أعمال كانت تقتصر على الأولاد مثل اصلاح الأدوات الكهربية في البيت ، أو أعمال النجارة ، أو اصلاح

صنابير المياه وغيرها فلابد أن يشجع ميلها وينمي ولايقال لها أن هذه أعمال الأولاد وعليها أن تتقن الطبخ مثلا .

كذلك إذا أبدى ولد من الأولاد ميلا إلى أعمال الخياطة أو ترتيب البيت أو الطبيخ فيجب ألا ينهر على أساس أن هذه الأعمال نسائية ولايصح للرجل أن يمارسها .

أن مثل هذه التربية في البيت منذ الطفولة ستضع أسس المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة في حياتهما الناضجة ، وتقضى على كثير من العقد النفسية التي يعاني منها الرجال والنساء الذين يؤمنون عقلياً بالمساواة ولكنهم يعجزون نفسياً عن ممارستها ، بسبب التربية الخاطئة التي حددت منذ الطفولة دور كل من الرجل والمرأة في الحياة .

ويجب أن يفهم الاطفال بالتدريج رغباتهم الطبيعية ، ولايخوفون منها . يجب أن تعرف البنت الصغيرة ما الذي سيحدث لها عند البلوغ . والتغيرات الجسمية التي ستحدث لجسمها ، وكيفية حدوث الحيض ، وكيفية نمو الثديين والردفين ، ومعنى الرغبات الجنسية التي تشعر بها أحياناً وهكذا .

وكذلك الولد يجب أن يعرف ما الذى سيحدث عند البلوغ ، فلا يفاجئه الاحتلام بالفزع ، أو التشكك بقدرته الجنسية أو أى شيء آخر . ويجب أن يتساوى البنت والولد في حقهما من الحرية ومن الاحساس برغباتهم الطبيعية التي خلقت معهم وتنمو بنموهم .

ولابد أن تصبح التربية في المدارس امتداداً للتربية في البيت وترتكز على نفس المفهوم . فلا يفرق بين التلميذات والتلاميذ فى أى شيء .

يتلقون الدروس نفسها والمواد نفسها ولا تكون هناك مواد خاصة بالبنات كالتدبير المنزلي والخياطة ومواد خاصة بالبنين كالفلاحة والنجارة وغيرها . لابد وأن تكون جميع الفصول مختلطة تجمع البنات والبنين ، ولابد أن يحصلوا جميعاً بنات وبنين على كل المواد بما فيها التدبير المنزلي والخياطة والفلاحة والنجارة وكل شيء .

أن تلقي التلميذ الولد لدروس التدبير المنزلي يجعله في المستقبل قادراً على مشاركة المرأة مسئوليات البيت نفسياً وعملياً . فهذه الدروس بالاضافة إلى أنها تزوده بالمعلومات ذاتها إلا أنها تقنعه نفسياً بأن هذه الأعمال لاتعيب الرجل إذا أداها ، وانها جزء من مسئوليته مثله مثل المرأة سواء بسواء .

وان تلقي البنت لأعمال النجارة والفلاحة تجعلها قادرة على مشاركة الرجل جميع الأعمال دون أن تشعر بأى حرج أو خجل، أو تنتظر الرجل ليقوم بها .

وبهذا تحتاج المدارس إلى أسلوب جديد في التربية ، وإلى تغيير في بعض المناهج ، وإلى تغيير في بعض الكتب والصور التي تعرض على التلاميذ والتلميذات .

أذكر أن أول كتاب تعلمت منه القراءة كانت فيه صورة لبنت تلبس فوطة المطبخ وقد كتب تحتها « سعاد تطبخ » وصورة مقابلة لها لولد جالس إلى المكتب وقد كتب تحتها « عماد يكتب » . أن مثل هذه الكتب والصور يجب أن تتغير . وتصور البنت جالسة إلى المكتب وإلى جوارها الولد جالساً إلى المكتب ، ثم صورة أخرى وهما معاً يعملان في الحديقة ، أو وهما معاً يعملان في المطبخ .

ولن يتسع هذا الكتاب لما يجب أن يحدث من تغيير في التربية وأساليبها سواء في البيوت أو فى المدارس ، وانما كل مايهمني هو التركيز على أن هذه التربية الجديدة يجب أن تسوي بين البنت والولد في كل شيء ، وأن تكون هناك لكل منهما فرص متكافئة للنبوغ في أى مجال يناسب شخصياتهم وميولهم وقدراتهم الذاتية بصرف النظر عن الجنس .

وبالاضافة إلى هذا فإن التربية في حاجة إلى مبادىء وأسس جديدة سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . لابد أن ترتكز التربية على عدم اخفاء الحقائق وعلى التعريف بكل مكونات الإنسان جنساً ونفساً وبيئة . أما أسلوب التربية فلابد أن يعتمد أساساً على المناقشة وعلى اشتراك التلاميذ والتلميذات الايجابي فيها ، وعلى تعودهم على ابداء آرائهم وعدم الجلوس صامتين كأجهزة استقبال فحسب يتلقون المعلومات وآراء الغير بالتسليم المطلق دون مناقشة .

لابد أن يتعود المدرس أو المدرسة على أن يعارضه التلاميذ والتلميذات ويختلفون معه في الرأى ومن خلال المناقشة يحدث الاقتناع وليس من خلال الطاعة والأصول والأدب . أن المثل الشائع في مجتمعنا الذي يقول بأن من علمني حرفاً صرت له عبداً يجب أن يتغير . فالعبد لايستطيع أن يناقش سيده أو يختلف معه في الرأى . يجب أن تتحرر أمثالنا الشعبية من كلمة العبد والعبودية لأى أحد ولأى سبب ، فإن هذا الاحساس بالعبودية سواء للمدرس أو الأب أو الأم أو رئيس العمل أو كل من كان في موقع السلطة احساس متخلف يحول بين الناس والنضوج والاستقلال .

وكما سبق أن ذكرت أن النموذج الذي يراه الطفل (سواء في البيت أو المدرسة) له أهمية بالغة . أن البنت والولد ينظران إلى أمهما وأبيهما كنموذج ، أو ينظران إلى المدرس أو المدرسة كنموذج . ولهذا لابد أن تكون الأم نموذجاً للمرأة التي تؤمن بعملها خارج البيت وتحب هذا العمل وتحترمه وتحرص على النجاح فيه ، ليس بسبب الأجر الذى تتقاضاه وانما لأنها عن طريق هذا العمل تحقق ذاتها كإنسانة .

وقد أجرت روث هارتلي بحثاً بين عدد من الأمهات الأمريكيات العاملات من الحاصلات على درجات جامعية عالية . واتضح لها في هذا البحث أن معظم هؤلاء الأمهات بالرغم من تعليمهن العالي وبالرغم من انهن يتولين مناصب فنية عالية وانهن يحببن عملهن ولايعملن من أجل المال أو الأجر فحسب ، إلا انهن يقلن لابنائهن وبناتهن انهن يعملن من أجل الحصول على المال . وقد سألت الباحثة هؤلاء الأمهات لماذا يخفين حبهن للعمل ويظهرن فقط السبب المالي وكان رد الأمهات هو : « وأى عذر آخر نلتمسه لخروجنا للعمل وابتعادنا عن أولادنا وبناتنا ، حينما نقول لهم اننا نخرج ونعمل من أجلهم ومن أجل تلبية احتياجاتهم المالية فإنهم يغفرون لنا الساعات التي نغيبها عنهم »

وتقول الباحثة أن مثل هؤلاء الأمهات لايعرفن التربية الصحيحة وانهن يرسبن في نفوس أولادهن وبناتهن مفهوماً خاطئاً للعمل عامة ، ولعلم المرأة خاصة . فالعمل في حياة الإنسان ضرورة نفسية واجتماعية يحقق من خلاله ذاته ويسعى عن طريقه إلى تطوير المجتمع إلى الأفضل والأرقى . أما الأجر المالي الذي يتقاضاه الإنسان عن عمله فليس إلا أحد نتائج هذا العمل وليس الهدف من العمل .

والأم التي تخرج إلى العمل وتشعر بالذنب لأنها تغيب عن أولادها لم تتخلص بعد من التخلف النفسي والعقلي الذي تعيشه معظم النساء بسبب التربية الخاطئة منذ الصغر التى تحدد وظيفة المرأة فى الحياة بوظيفة الانجاب وتربية الأولاد

ولابد للأم العاملة أن تتخلص من تخلفها ، وتدرك أن عملها خارج البيت واشتراكها في بناء المجتمع وتطويره هو وظيفتها الأساسية في الحياة كإنسان . أما دورها بالنسبة للزوج والانجاب وتربية الأولاد فهو كدور الرجل بالنسبة للزوج والانجاب وتربية الأولاد ، ومسئوليات الأمومة مساوية لمسئوليات الابوة تماماً ، وكلاهما في حاجة إلى مفاهيم جديدة غير مريضة تتساوى فيها الأم والأب في منح الحب والحنان والرعاية لأطفالهما . ويدرك الأب انه يجب ألا يقضى النهار بطوله خارج البيت ولايرى أطفاله إلا لماماً ويترك مسئولية رعايتهم للأم كاملة . أن الأبوة بمعناها الصحيح هى أن يمنح الأب أطفاله حبه وحنانه ويخصص لهم وقتاً يقضيه معهم . وكذلك الأم يجب ألا تقضى النهار بطوله ملتصقة بأطفالها في البيت ترضعهم حناناً مريضاً وتعفي الأب من مسئوليات أبوته بل يجب أن تفهم معني الأمومة الصحيحة من حيث القدرة على منح أطفالها كل فرص النضوج والاستقلال ومنحهم من الحنان والحب القدر المطلوب حتى يمكن أن تكتمل للأطفال صحتهم النفسية .

وبهذا لاتشعر الأم بالذنب حين تخرج من بيتها إلى العمل ، بل انها تشعر بالذنب حين تبقى بالبيت طول النهار مع أولادها . لقد ثبت أن بقاء الأم طول الوقت مع أطفالها يضر بصحة الأطفال النفسية ويؤجل نضوجهم ويسبب لهم أنواعاً مختلفة من العقد .

وفى أبحاث سنة ١٩٥٠ في أمريكا ثبت أن أبناء النساء العاملات لايعانون من المشاكل النفسية التي يعاني منها أبناء النساء المتفرغات بالبيوت .

هذا بالإضافة إلى أن بقاء المرأة في البيت اهدار لإنسانيتها وقدراتها النفسية والعقلية التي يجب من خلال العمل في المجتمع أن تنمو وتتطور .

أن العمل يساعد على نضوج المرأة فتصبح شخصية مستقلة حققت ذاتها . وحين تحقق المرأة ذاتها من خلال العمل فإنها لن تحتاج إلى أن تعيش من خلال أطفالها وتحقق ذاتها من خلالهم ومن خلال حاجتهم الدائمة إليها ، فتلتصق بهم ذلك الالتصاق الذي يعجزهم عن الاستقلال عنها ، والذى يشعرهم بالذنب إذا هم استقلوا عنها . وتشعر مثل هذه الأم بالأسى حين يستقل عنها ابنها الشاب مثلا ، أو يخطب فتاة ليتزوجها . ومثل هذه الأم هي الحماة الأنانية التي تتشبث بحقها في ابنها حتى بعد أن يتزوج وتحقد على زوجته لأنها خطفت منها ابنها واستحوذت على حبه واهتمامه . وحينما ينصف الزوج زوجته تتهمه أمه بأنه لم يكن يستحق أن تنفق حياتها لتربيته وتشعر بالندم لأنها أعطت لمن لايرد ، فيشعر الابن بالاثم وقد يظن أن زوجته هي سبب المشاكل وتفسد حياتهم الثلاثة . ومن المعروف أن مشكلة الحموات شائعة في جميع أنحاء العالم وسببها هو بقاء الأم بالبيت مع أطفالها .

ولاشك أن الاتجاه العام إلى تحديد النسل يجعل الأم غير العاملة تركز كل حياتها وتصوب كل أمومتها المتضخمة المريضة نحو طفل

واحد أو طفلين بعد ان كانت توزعها على عدد من الأطفال فيخف الضرر على الواحد منهم كلما زاد عددهم . بالاضافة إلى أن الاقلال من عدد الأطفال يمنح الأم سنوات أكثر من الفراغ والوحدة القاتلة فتصبح في حاجة أكثر إلى العمل والاستفادة من الوقت .

ان تأكيد معنى العمل وهدفه لتحقيق الذات يمنح السعادة لجميع النساء العاملات ، ولن تشعر المرأة التي لم تنجب انها لم تحقق ذاتها أو لم تصنع بحياتها شيئاً ولن ينظر اليها المجتمع نظرته القديمة كامرأة عاقر بغير فائدة .

ان تحقيق الذات عند الإنسان رجلاً كان أو امرأة لايمكن أن يكون عن طريق انجاب الأطفال ، ومن الخطأ والتخلف أن تشعر النساء بالرضا بحياتهن والسعادة لمجرد انجاب الأطفال . ان العمل ضرورة انسانية أما الانجاب فليس إلا وظيفة بيولوجية تقوم بها جميع الكائنات الحية ابتداء من الأميبا إلى القرود .

ان الإنسان الذي لايفهم معنى العمل وهدفه الحقيقي لايستطيع أن ينبغ في هذا العمل ، ولايستطيع أن يجدد فيه ويطوره إلى الأفضل ، ويظل كالآلة يؤديه ويكرر نفسه كل يوم بغير ابتكار أو تجديد ، ولاشك أن مثل هذا الشخص يظل قانعاً بالأعمال الصغيرة في المجتمع غير قادر على النشاط في مجالات أكبر . ولهذا فإن معظم النساء العاملات وبسبب عدم إيمانهن بالعمل وفهمهن لهدفه الصحيح فانهن يقنعن بأعمال السكرتارية والتمريض وغيرهما من أعمال الخدمة ، والقلة القليلة منهن من تخوض مجالات فنية كبيرة تثبت فيها نبوغها وقدرتها على الخلق والابتكار .

من احصاءات أخيرة عن المرأة العاملة في الولايات المتحدة اتضح **أن ١٤٪ فقط من النساء العاملات يشغلن وظائف مهنية وفنية عالية أما الباقي** فيشتغلن بأعمال تندرج تحت أعمال الخدمة والسكرتارية وغيرها .

وقد اتضح أن الزوجة الذكية الطموحة في كثير من الأحيان والتي قد تنبغ في مجال ما من المجالات تخشى نبوغها ، وقد تفوت على نفسها فرصة هذا النبوغ حماية لحياتها الزوجية من المشاكل فالرجل الزوج لازال يشعر بالحرج أو الغيرة حين تتفوق زوجته عليه أو يزيد نجاحها عن نجاحه . والعلاج في مثل هذه الحالات ليس هو أن تتخلى المرأة عن ذكائها وتتظاهر بالغباء لتهبط إلى مستوى زوجها الفكرى ولكن العلاج هو أن يدرك الرجل أن تفوق زوجته عليه ليس عيباً بالنسبة إليه ، وليس داعياً لأن يصيبه بمركب النقص ، فليس من الضروري أن يكون الزوج دائماً هو الأكثر ذكاء والأكثر نجاحاً من زوجته ، بل أن الزوجة قد تكون هي الأكثر ذكاء والأكثر نجاحاً فلا ينتقص ذلك شيئاً من الزوج ولايسبب ذلك أن تنهار الحياة الزوجية أو تحدث المشاكل .

أما إذا أصر الزوج على نظرته المتخلفة إلى زوجته وإلى نفسه وإلى العلاقة الزوجية بينهما فعلى الزوجة إلا تضحي بنبوغها من أجل هذا الزوج وإلا فقد أخطأت في حق نفسها وفي حق المجتمع الذي يحتاج إلى نبوغها ليتطور إلى الأفضل .

ان غيرة الأزواج وأنانيتهم وخوفهم من تفوق زوجاتهن لايعني أبداً أن تظل الزوجات خاملات فاشلات ارضاء لهؤلاء الأزواج ، والأجدر بهؤلاء الأزواج أن يتغيروا ، ويغيروا نظرتهم القديمة إلى المرأة الزوجة .

ان الرجل الحديث قد يقبل أى امرأة رئيسة له في العمل ، فيما عدا زوجته . كذلك الرجل الذي يعمل كطباخ في فندق مثلاً . انه يطبخ كل يوم لمئات الرجال والنساء الوافدين على مطعم الفندق ، لكنه إذا عاد إلى بيته شعر بالحرج والضيق إذا طبخ هو ولم تطبخ زوجته ، واعتبر ممارسته للطبخ في بيته عيباً . أما ممارسته للطبخ في الفندق فليس عيباً .

والواقع ان الطبخ هو الطبخ بصرف النظر عن المكان الذى يحدث فيه ، لكن نظرة الرجل إلى الزواج والمرأة هي التي تجعله يشعر ان زوجته لابد أن تخدمه وأن تطعمه ، وأنها لابد أن تكون أقل منه ذكاء ونجاحاً في الحياة لتستقيم الحياة الزوجية بينهما وتسير في طريقها المعتاد المألوف في المجتمع .

ويظن بعض الناس أن نبوغ المرأة وقوة شخصيتها وقدرتها على السيطرة والقيادة تفقدها أنوثتها وتقلل من قدرتها الجنسية والعاطفية . لكن « ماسلو » أثبت خطأ هذه الفكرة في بحث له بين ١٣٠ شابة أمريكية من الحاصلات على درجات جامعية . فقد اكتشف ماسلو انه كلما كانت شخصية المرأة قوية ومسيطرة زادت متعتها في الجنس وزادت قدرتها على الحب الحقيقي ، ذلك أن المرأة ذات الشخصية القوية تشعر بأنها حرة وأنها حققت ذاتها واستطاعت أن تكون نفسها الحقيقية الطبيعية وهذا كله ضروري في الحب والجنس بمعناهما الحقيقي .

وهؤلاء هن النساء بالمعنى الحقيقي للأنوثة أما المعنى التقليدي

لمفهوم الأنوثة الموروث عن فرويد ونظريات التحليل النفسي فقد ثبت بعده عن العلم الصحيح وعن الحقيقة .

وقد أثبت ماسلو أيضاً أن هؤلاء النساء العاملات القويات الشخصية أكثر سعادة من النساء الأخريات اللائي يعشن في البيت ويخدمن أزواجهن وأطفالهن ، ووجد هوفمان (١٩٦١) أن الأم العاملة أكثر دفئاً في علاقتها مع أطفالها من المرأة غير العاملة ، وأنها أكثر تعاوناً ورقة وهدوءاً ، وفي بحث آخر اتضح أن ٩٠٪ من هؤلاء الأمهات غير العاملات لايتمنين لبناتهن أن يعشن الحياة التي عشنها هن . وهذا يوضح عدم رضا الأم غير العاملة عن حياتها وأن تظاهرت بالرضا أو بأنها تحقق ذاتها من خلال زوجها وأطفالها . ان مثل هذه الأم تكتشف بعد فوات الأوان انها ضيعت نفسها وحياتها .

* * *

ان حركة تحرير النساء في مجتمعنا العربي أو مايسمى بالنشاط النسائي يركز الاهتمام على تغيير القوانين التي تنظم العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة أو ماتسمى بقوانين الأحوال الشخصية . ولاشك أن تغيير مثل هذه القوانين المجحفة بالمرأة ضروري لاقرار مباديء المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات ، لكن التغيير الاجتماعي المنشود يتطلب أن تتحول هذه القوانين الجديدة إلى ممارسة يومية في حياة الناس الخاصة والعامة وأن تنصهر المفاهيم الجديدة لتصبح نسيج المجتمع الجديد .

ان عملية تحويل القوانين إلى خيوط في نسيج المجتمع ليس بالعملية السهلة فالناس قد يتحمسون لتغيير قانون الزواج أو قانون الأحوال

الشخصية ويؤيدون أن تنص مواده على مساواة المرأة بالرجل ، ولكنهم يقاومون مظاهر هذه المساواة في حياتهم الشخصية . ولهذا فإن حركة تحرير المرأة أو النشاط النسائي لايستطيع أن يحقق الشيء الكثير بالاهتمام بتغيير القوانين فحسب . وانما لابد من أن يقترن الكفاح من أجل تغيير القوانين بكفاح مماثل بل أشد من أجل تغيير المؤسسات الاجتماعية التي من خلالها يتحقق تطبيق هذه القوانين . وبغير هذا التغيير في المؤسسات الاجتماعية لايمكن للقوانين الجديدة أن تطبق وتظل حبراً على ورق ، ويصبح الانتصار الذي تشعر به النساء لمجرد تغيير القوانين انتصاراً أجوف بغير معنى ، لأنه ليس انتصاراً ، ولأن مساواة المرأة والرجل لم تحدث ولم تترجم إلى واقع عملي يعيشه الناس .

ولاشك أن المؤسسات التربوية والتعليمية (أي المدارس والمعاهد والجامعات) هي أهم المؤسسات التي يجب أن تغير مضمونها وأسلوبها ، لأن تربية الأطفال كما سبق أن ذكرت هي الأسس التي تبني عليها الشخصية والتكوين النفسي والعقلي للإنسان ، والتي تتحكم فيه في مراحل النضوج جميعاً .

ومن المؤسسات الاجتماعية الأخرى التي لاتقل أهمية عن سابقتها المؤسسات الثقافية والاعلامية وتشمل الاذاعة والتليفزيون والمجلات والصحف والكتب وغيرها من وسائل توصيل المعلومات إلى الناس . يجب أن تتحرر هذه المؤسسات من القيم التجارية التي تقوم على تحقيق الربح بأى شكل ، وبالتالي تكون في غنى عن افتعال الموضوعات المثيرة واستغلال الجنس وجسد المرأة في ترويج بضاعتها للناس .

وان تحل قيم المساواة الجديدة محل هذه القيم التجارية . ان برامج الاذاعة والتليفزيون مطالبة في مجتمعنا الذي يسعى إلى أن يساوي بين الرجل والمرأة بتقديم برامج للنساء والرجال معاً . ويجب أن تلغي تلك البرامج التي تسمى بالبرامج النسائية والتي يقدم فيها طرق الطهي والغسل وعروض الأزياء ومستحضرات التجميل . يجب أن توجه البرامج الثقافية للمرأة والرجل على السواء وتلعب دوراً في تغيير ذلك المفهوم التقليدي الذي يحدد وظيفة المرأة بالطهي والغسل والتزين .

وبالمثل يجب الغاء كل ماهو نسائي في الصحف والمجلات والا تقسم الثقافة التي تعطى للناس حسب اختلافهم ذكوراً أو اناثاً . أن ذلك القسم أو الركن الذي يسمى ركن المرأة يقدم لها نصائح لتحافظ على نعومة بشرتها وغزارة شعرها وطول رموشها يجب أن تلغي . وليس معنى ذلك أن تقاطع الصحف والمجلات الجمال وكيفية التجمل . ولكن المطلوب هو أن تنشر هذه الصحف والمجلات المعنى الشامل للجمال كجمال الجسم وجمال النفس وجمال العقل . ويجب أن تقدم للناس رجالاً ونساء كل المعلومات التي تساعدهم على تجميل أجسامهم ونفوسهم وعقولهم . وبالطبع سوف يحتاج تجميل الجسم إلى وسائل ومستحضرات معينة ، ولكنها في ذلك الوقت لن تكون هي كل مايقدم عن الجمال ، كما أنها لن توجه إلى النساء وحدهن وانما إلى جميع الناس .

ولاشك أن الزواج والأسرة أحد المؤسسات الاجتماعية التي يجب أن يشملها التغيير . وسواء تغيرت قوانين الزواج القديمة أم لم تتغير فيجب على الزوجة أن تعرف حقوقها وواجباتها وتعرف انها مساوية تماماً لزوجها وتتعامل معه على هذا الأساس .

يجب أن تدرك المرأة انها مسئولة عن الانفاق على الأسرة بالتساوي مع زوجها طالما انها تتقاضى عن عملها أجراً مساوياً لأجره . ويجب أن تدرك أن عملها خارج البيت ليس شيئاً كمالياً وانما ضرورة وأن مشاركتها في الانفاق على الأسرة ليس تطوعاً منها وانما واجب كالرجال سواء بسواء .

كذلك يجب أن يدرك الزوج انه مسئول عن أعمال البيت وتربية الأولاد بالتساوي مع زوجته العاملة ، وان واجبات الأبوة مساوية لواجبات الأمومة وقضاء الأب بعض الوقت مع أطفاله بالبيت له نفس أهمية قضاء الأم بعض الوقت مع أطفالها .

وكما يتساوى الزوج والزوجة في واجبات الأبوة والأمومة كذلك يجب أن يتساويا في حقوق الأبوة والأمومة ولاتزيد حقوق الأبوة عن حقوق الأمومة في أي شيء بما في ذلك حق النسب وحق تسمية الأطفال .

ولا تقتصر المساواة بين الزوج وزوجته على الحقوق والواجبات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ولكنها يجب أن تشمل أيضاً المساواة في الحقوق والواجبات الشخصية والجنسية . يجب أن تدرك المرأة أن حقها في الحصول على قمة اللذة الجنسية (الاورجازم) مساوياً لحق الرجل ، وكما يطالبها الرجل بهذا الحق ولايشعر بالحرج فيجب أن تطالبه هي أيضاً بهذا الحق دون حرج ، وتساعده على أن يحققا في الجنس متعته الكاملة لهما هما الاثنين . يجب أن تدرك الزوجة أن الايجابية في الجنس ليست واجب الزوج فحسب وانما هي واجبها أيضاً ويجب أن تشترك مع زوجها ايجابياً في كل شيء

وأن تتبادل معه كل رأى، وانه ليس هناك من عيب إلا أن يخفي الإنسان مشاعره الحقيقية ويتظاهر بغيرها .

يجب على الزوجة أن تدرك أن تظاهرها بأنها بلغت قمة اللذة في الجنس بالرغم من أنها لم تبلغها انما هو العيب أو عدم الشرف لأنه نوع من الكذب . وبصرف النظر عن هدفها لارضاء الزوج واشباع غروره إلا أنه يظل كذباً ، وينعكس أثره النفسي السيىء على الزوجة ، بالاضافة إلى انه يضلل الرجل . والأجدر بالزوجة التي لا تبلغ قمة اللذة أن تصارح زوجها بالحقيقة وان تشترك معه في ازالة الأسباب التي تحول دون تحقيق هذه اللذة .

وقد لايستطيب الزوجَ التقليدي مثل هذه المصارحة من زوجته ويعدها نوعاً من قلة الشرف عند المرأة ، لكن العلاج ليس هو أن تخفي المرأة الحقيقة من أجل ارضاء الرجل التقليدي ، ولكن العلاج هو أن يتغير الرجل التقليدي وأن يدرك أن حقوق زوجته في المتعة الجنسية مساوية لحقوقه تماماً ، وأن الشرف ليس معناه اخفاء الرغبات والمشاعر الحقيقية وانما الشرف هو الصدق في التعبير عن هذه المشاعر .

ولا أظن انني بحاجة في مثل هذا الكتاب إلى شرح علمي لتكنيك العملية الجنسية بين الرجل والمرأة والمراحل التي تمر بها ابتداء من التمهيد النفسي إلى الاعداد والمداعبة واثارة المناطق الجسمية الحساسة وتعاون الرجل مع المرأة على اكتشاف جسميهما معاً وعلى ادراك أفضل الوسائل لبلوغ قمة اللذة . لست بحاجة إلى هذا لأني اعتقد أن فشل العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ليس بسبب جهلهما بتكنيك

العملية الجنسية ، وانما بسبب الجهل الأعظم ، وهو جهل الرجل بالمرأة كانسان مثله ومساوية له في جميع الحقوق والواجبات في الحياة بما فيها الجنس . وكذلك جهل المرأة بنفسها وبقيمتها كإنسانة مساوية للرجل تماماً في جميع الحقوق والواجبات الجنسية وغير الجنسية .

ان تصحيح نظرة الرجل إلى المرأة ، وتصحيح نظرة المرأة إلى نفسها يتبعه بالضرورة تصحيح لكل العمليات التي تحدث بينهما في حياتهما المشتركة بما فيه العملية الجنسية . فالعملية الجنسية ليست مجرد تكنيك معين ، أو حركات تؤدي ، أو أوضاع معينة ، أو أن لها زمناً محدداً ، أو مواصفات معينة لشكل وأحجام الأعضاء التناسلية ، أو مراحل معينة يجب أن تمر بها مرحلة بعد مرحلة بنظام دقيق لايتغير .

العملية الجنسية ليس لها قاعدة ثابتة محددة ، وانما هي تختلف باختلاف الأشخاص ، والأوقات ، والظروف . ولايمكن لأى شخص أن يحدد لزوجين مايجب أن تكون عليه العملية الجنسية بينهما انهما هما وحدهما ، وبالتعاون مع بعضهما البعض ، يمكن لهما أن يكتشفا أفضل الوسائل وأفضل الطرق التي يمارسون بها العملية الجنسية .

* * *

ولا يقل عن المؤسسات السابق ذكرها في الأهمية.مؤسسات العمل على اختلاف أنواعه ومجالاته السياسية والاقتصادية والمهنية والتشريعية والتنفيذية وغيرها . ولايمكن أن تتحول قوانين المساواة بين الرجل والمرأة في حقوق العمل وواجباته إلى حقيقة فعلية ما لم تشترك المرأة

مع الرجل على قدم المساواة في جميع هذه المجالات دون استثناء . يجب ألا تكون هناك مجالات أو وظائف قاصرة على الرجل مثل وظيفة الحاكم والمشرع والقاضي والجندي ورجل الشرطة وغيرها . لابد أن تعطى المرأة فرصاً مساوية لفرص الرجل في ممارسة العمل الذي تختاره والذي تريد أن تنبغ فيه . أن الرجل لمجرد أنه ذكر لايستمتع بصفات عقلية أو نفسية تجعله ينجح في مهمة القاضي مثلاً أكثر من المرأة . قد تكون هناك امرأة أكثر قدرة على ممارسة مهنة القضاء أكثر من رجال كثيرين ، ومن الظلم أن نحرمها من اثبات تفوقها في هذا المجال لمجرد أنها امرأة . وهكذا في المجالات الأخرى .

وحيث أن عدد النساء العاملات والمثقفات أقل بكثير من عدد الرجال فإن تمثيل المرأة في جميع المؤسسات الاجتماعية والتشريعية والسياسية أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه ، وبالرغم من أن هذا التمثيل يجب أن يكون ٥٠٪ على الأقل ليعبر تعبيراً صحيحاً عن نسبة عدد النساء إلى عدد الرجال في المجتمع إلا أن الأرقام الحقيقية تدل على أن المرأة لاتزال غير ممثلة فعلاً . أن وجود خمسة أو ستة نساء في مجلس يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ رجل لايمكن أن ينسمى تمثيلا بأي حال من الأحوال . ولهذا لايمكن لمثل هذا المجلس سواء كان تشريعياً أو تنفيذياً أن يتحمس لشيء يمس حياة المرأة واحتياجاتها الجسمية والنفسية والعقلية أو يسعى لتحقيق المساواة بين النساء والرجال السعي المطلوب .

لابد أن يتزايد عدد النساء العاملات في جميع المجالات وبالذات المجالات الهامة مثل السياسة والتشريع والقضاء والأعمال الفنية والمهنية العالية ليصبح عددهن مساوياً لعدد الرجال في هذه المجالات .

حينئذ يصبح صوت المرأة مسموعاً كصوت الرجل وتصبح قوة النساء الاجتماعية مساوية لقوة الرجال . وبهذه القوة الاجتماعية يمكن للمرأة أن تحقق المساواة التي تنشدها ويمكن أن تحول القرارات والقوانين من حبر على ورق إلى حقيقة عملية يعيشها الناس كل يوم .

ولكن هناك حقيقة لايمكن اغفالها ، وهناك عائق لايمكن تجاهله يحول دون قدرة المرأة المتزوجة عن العمل خارج البيت وهو المسئوليات الملقاة على عاتقها وحدها داخل البيت من أعمال الطهي والخدمة وتربية الأطفال . وإذا كان المجتمع ينشد المساواة فعلا بين الرجال والنساء فلابد أن يزول هذا العائق بشتى الطرق . كأن يتحمل المجتمع عن الأم هذه المسئوليات بأن ينشىء دوراً للحضانة والأطفال في كل مكان ، وأن تنشيء المطاعم العامة التي تعفي المرأة من الطهي ، وأن يصبح غسل الملابس تابعاً لمؤسسات عامة في المجتمع ، وكذلك وسائل تنظيف البيوت وما شاكلها . ولابد حتى اتمام هذه المنشآت أن يساهم الزوج مع زوجته في تحمل أعباء البيت والأطفال بالتساوي حتى لايحرمها من العمل خارج البيت .

ان مطالبة المرأة العاملة بأن تجمع بين عملها خارج البيت وداخله دون معاونة من الزوج أو المجتمع ماهو إلا تعجيز للمرأة واستنزاف لصحتها الجسمية والنفسية والعقلية ، بحيث تصل إلى مرحلة من الأرهاق تصيبها بالضرر والمرض وتقلل من انتاجها وفرصها في النبوغ ولا أقول مجرد مواصلة العمل . والحل ليس هو أن تتخلي المرأة عن عملها خارج البيت كما يحدث في معظم الأحيان ، لأن تخلي المرأة عن عملها معناه تخلي المرأة عن حياتها كانسانة . ولهذا فأنها إذا ما اضطرت يوماً أن تختار بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت فالأجدر

بها كانسانة أن تختار عملها خارج البيت . أن أى تضحيات تدفعها المرأة من أجل مواصلتها العمل خارج البيت أقل فى رأيي من التضحيات التي تدفعها حين تبقى في البيت وتستسلم للمصير الذي استسلمت له من قبل أمها وجدتها . أن هذه التضحيات لن تزيد عن غضب زوجها الذي قد يؤدى إلى فشل حياتهما الزوجية . لكن الفشل في الحياة الزوجية أقل ضرراً للمرأة من الفشل في الحياة كلها وفقدان نفسها بين جدران البيت .

ولاشك أن التاريخ يثبت أن معظم النساء النابغات فشلن في حياتهن الزوجية أو رفضن الزواج على الاطلاق ، ومنهن جورج اليوت وجورج صاند وسيمون دي بوفوار اللائي رفضن الزواج .

وفي رأيي انه إذا تعارض الزواج مع عمل المرأة خارج البيت ونبوغها في الحياة فالذي يجب أن يتغير ليس هو عمل المرأة أو ارادتها في النبوغ وانما الزواج هو الذي يجب أن تتغير اسسه ومفاهيمه وقوانينه حيث لايتعارض مع عمل المرأة ونبوغها .

* * *

وأخيراً فليس هذا كله إلا خطوات على الطريق ، وعلى النساء الناضجات الواعيات أن يدركن أن الطريق طويل وشاق ، وانه يحتاج إلى مزيد من الشجاعة والقوة والصبر والتآزر ، وإلى مزيد من المعرفة والوعي ، ولعل هذا هو هدف كتابي . وعليهن أن يدركن أن أى محاولة للتصحيح لابد وأن تتجه نحو المجتمع والظروف التي يعيش فيها الناس والمعلومات التي تغزو عقولهم ونفوسهم منذ الصغر .

وعلى المرأة أن تدرك أن نجاح حركتها للتحرير يرتكز على مقدار نجاحها في المساهمة في تغيير المجتمع وتحويله إلى مجتمع اشتراكي حقيقي يحقق المساواة والعدالة لجميع البشر بصرف النظر عن لونهم أو جنسهم أو طبقاتهم الاجتماعية .

فهرســـت



أن تجربتي الخاصة كأمرأة تزودني بحقيقة أحاسيس المرأة العميقة . وما أحوج العالم إلى معلومات صحيحة عن المرأة ، تغير المفاهيم الخاطئة التى أشيعت عنها ، وتصحح المعلومات التى راجت عنها فى العالم ، والتى كانت تكتب فى معظم الاحيان بأقلام الرجال . ولهذا لم تكن هذه المعلومات تعبيراً عن حقيقة المرأة ، ولكنها كانت وجهة نظر الرجل فى المرأة . وما أكبر الفارق بين الحقيقة وبين وجهة النظر .

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية